# حواراتي مع

# القرآن

أحمد دعدوش






# حواراتي مع القرآن



# حواراتي مع القرآن

تأليف: أحمد دعدوش

تدقيق: عرابي عبد الحي عرابي

تصميم الغلاف: أمجد بربور

من إصدارات مؤسسة السبيل

2022

الطبعة الأولى

١٤٤٤ هـ - ٢٠٢٢ م



من إصدارات مؤسسة السبيل

www.al-sabeel.net




دار الإمام المازري للنشر والتوزيع

١٢ نهج السبخة باب الجزيرة - تونس - ١٠٠٠

الهاتف: ٠٠٢١٦,٢٥٩٥٣٤٦٦

البريد الإلكتروني : dar.maziri@gmail.com

المتجر الإلكتروني : www.mazribookstore.tn

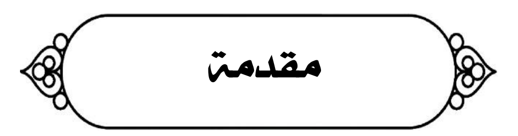


# إهداء

عزيزي القارئ،

بما أنك فتحت كتابي ووقعت عينك على هذه الصفحة، فاعلم أني كتبتُ هذا الكتاب لك.

# المحتويات



# مقدمة

ما أكثر ما كُتِب في تدبّر هذا الكتاب العظيم، ولا ريب في أن دفق الخواطر والتأمّلات على ضفاف هذا البحر الواسع لن ينضب ما بقي مؤمن موحد على هذه الأرض. فإذا كان ابن تيميّة قد قال: إنّه كان يطالع على الآية الواحدة مئة تفسير، ثم يسأل الله الفهم قائلًا "يا معلِّم آدم وإبراهيم علِّمني"، فيُفتَح له بتفسير جديد[١]، فكيف لا نطمع في انقداح قبسات جديدة لعقولنا من هذا الوحي الذي لا تنقضي عجائبه؟

التدبّر لا يستلزم البحث عن تفسير حداثيٍّ لكلمات الله، والتأمّل ليس ضربًا من شطحات التصوّف التي تفرح بالترميز والتشفير. فالتفسير علم له أصوله وضوابطه، وللعقيدة قطعيّاتها التي لا تقبل العبث، وطلب العلم فريضة على كل مسلم.

القرآن هو رسالة الله لنا، وهديَّة الهداية التي أودعها عندنا، وهو ميراثنا المُتبقّي من معجزات النبوة، ومصاحفه هي الأثر -الذي نقبّله- لعالم الملكوت الذي نحنّ إليه. فكيف لا تتوق نفس كلّ مسلم إلى تدبّر آياته في خلواتها؟ وكيف لا يطمع بأن يُفتَح له من بركات الفهم ما يتنزل على واقعه ومعاشه؟

لا يضيرنا إسفاف المغرضين في ليّ أعناق النصوص، فشياطين الإنس والجن مولَعون بتحريف الكتب والصحف المُنزَلة جيلًا بعد جيل. وإذ وعد الله جل وعلا بحفظ نصوص كتابه الأخير عن تحريف أيدي العابثين، فلن يعدموا الوسيلة للعبث في تأويل معانيه وتنزيلها على قوالب أهوائهم.

---

(١) محمد أبو زهرة، ابن تيمية: حياته وعصره- آراؤه الفقهية، ص ٥١١.

والأمثلة في ذلك لا تحصى، فمن كان يبحث عن حاضنة لأفكاره الاشتراكية زعم أن القرآن كتاب ثوري أُنزل لتحقيق العدالة الاجتماعية وحماية المُهمّشين، ومن كان همّه اللحاق بحضارة الغرب الليبراليّة طفق يبحث بين الآيات عن ألفاظ ومشتقات العلم والقراءة والعقل وطرحِ الأسئلة.

ولا يخفى على المسلم البسيط أنّ الوحي الإلهيَّ أكبر من أن يُحَدَّ بحدود الهوى، وأن الدين يُؤخَذ جملة واحدة، وإلا انقلب من دليل هداية إلى أداة تضليل، واحتجّ به كل مُغرض ليسوّغ هواه، ثم فعل خصمُه الشيء نفسه لينقض مزاعم الأول، وهكذا حتى يضيع الحق بين المتخاصمين.

فلنستحضر إذن في أذهاننا تلك الدوافع والنوازع، قبل أن نضع قلوبنا بين دفّتي هذا الكتاب، فلطالما تقدم القلب ليسوق العقلَ إلى مبتغاه، ولنؤمّن على الدعاء في أول صفحة نستفتح بها: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فالعبادة لا تبلغ غايتها بدون طلب الاستعانة بالله، وأي عبادة أسمى من تدبرنا لكلماته جل وعلا؟

## كتابٌ حواريّ

أثناء شروعي في تدوين هذا الكتاب، وقع في يدي كتاب لطيف من جزأين بعنوان "القرآن والعقل" للكاتب أبي زيد المقرئ الإدريسي، ووجدته يمهّد للجزء الثاني بفصل يعتبر الحوار أُفقًا للعقل ومدخلًا لفهم القرآن وتدبّره، فهو يرى أن القرآن الكريم ذو طبيعة حوارية، وليس مجرد بنْية تقوم على التبليغ بالتلقين[(١)].

(١) القرآن والعقل، ص ٢٨.

ثم ينقل عن الباحث محمد عمراني حنشي قوله: إن القرآن الكريم ما ادّعى دعوى إلا كان له من نفسه عليها دليل، فهو كتاب مستغنٍ بذاته عن خارجه، ولا يقدّم أي دعوى إلا ويعززها بأمثلة وتطبيقات ونماذج[1].

ويسهب المؤلف في استعراض "انفتاح" هذا الكتاب العظيم على الآراء المخالفة، فمادّة القول بتصريفاتها ومشتقاتها تكررت فيه ١٧٢٢ مرة[2]، وما أكثر الدعاوى الباطلة التي خلّدها القرآن برواياتها على ألسنة المشركين وأهل الكتاب والشياطين والمنافقين، فهو يمنح أهل الباطل حق التساؤل بإنصاف، ثم يأتي على أسسها فينقضها بإتقان.

وقد وقع في نفسي هذا القول موقعًا حسنًا، فتأمُّلُ الحوارات في القرآن يعزِّز إيماني بسموّ مصدره، ويمنحني مناعة من الشعور بالوهن الذي قد يطرأ على النفس عند تلقّي الشبهات الباطلة.

ولكن، كيف سيكون هذا الشعور لو أني وضعت نفسي أثناء التدبّر موضع المُحاور، و"استنطقت النصّ" بما قد يعتلج في نفسي من خواطر؟ لا سيّما إذا افترضتُ -جدلًا- أنّي سأقرؤه بعين الشاكّ الذي لم يطمئن قلبه بالإيمان بعد، فأيّ أثر سيتركه هذا النصّ في نفسي؟

هنا يصبح الحوار مباشرًا مع هذا الكتاب الاستثنائيّ، وتصبح العلاقة معه شخصيّة بالفعل. ولا أظنّ أني سأفترض وجود ميزة أعلى من هذه لو أني شرعت في

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٠.

قراءته بقلب رجل متشكّك جاحد، ولا أعتقد أن مبدعًا من البشر قد تبلغ به العبقرية إلى درجة وضع كتاب بهذه الفاعليّة.

## دليل الهداية الشخصيّ

في مطلع الثمانينات، قرّر الدكتور جيفري لانغ، وهو بروفيسور في قسم الرياضيّات بجامعة كنساس الأمريكيّة، أن يترك الإلحاد وراء ظهره ويعتنق الإسلام، مع كل ما يرافق تلك الخطوة من صعوبات أكاديميّة واجتماعيّة.

وفي كتابه "حتى الملائكة تسأل"، شرح الدكتور لانغ أبعاد معاناة الكثير من المسلمين الجدد في أمريكا، وأوضح أيضًا أن أهمّ دوافع تمسّكهم بهذا الدين الغريب عن بيئتهم، هو ذاك "الإحساس الرائع الذي يشعرون به عندما يتواصلون مع التنزيل المُحكَم عند قراءتهم للقرآن"[١].

وقال إن معتنقَ الإسلام الجديد يكتشف أن أساس إيمانه لا ينجم فحسب عن قراءته الموضوعيّة للقرآن، بل عن "خبرته الخاصّة به، أو لنقل نتيجة تواصله الخاص مع هذا الكتاب الكريم"، كما يؤكّد أنّه يصعب على معتنق الإسلام أن يحدّد عنصرًا ما في القرآن كان سببًا لإيمانه، فتوصُّله إلى الاقتناع بأن هذا الكتاب وحيٌ إلهي يتطوّرُ تراكميًّا بعد بناء خبرة خاصّة للمتدبّر أثناء قراءته لنصوص القرآن.

ولعل أروع النقاط التي أشار إليها المؤلف، هي شعور معتنقي الإسلام الأمريكيّين أثناء القراءة بأن القرآن يستجيب لحالاتهم العاطفيّة والنفسيّة، بل

---

(١) جيفري لانغ، حتى الملائكة تسأل، ص ٢٠٥.

يستجيب لردود أفعالهم وكأنه يتنزّل عليهم شخصيًّا، فيُذهل القارئ وهو يكتشف أنه يقيْم حوارًا حيًّا مع النصّ الماثل بين يديه.

وهذه اللحظات المكثَّفة هي بالضبط التي تصيبني بالقشعريرة عندما أتدبّر نصوص ذاك الوحي العظيم، وأحسب أن القارئ الحصيف قد سبقني لاستحضار الآية الكريمة التي تمثل هذا الموقف المهيب، إذ يقول ربنا جل وعلا: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

واستشهد الدكتور لانغ بأمثلة على مثقفين غربيين يشعرون بالهيبة والتواضع أمام نصوص القرآن مع أنهم لم يعتنقوا الإسلام، ومنهم المستشرق البريطاني آرثر ج. آربري الذي قال إنه حينما يستمع إلى القرآن فكأنما يستمع إلى نبضات قلبه[1].

والعجيب أن ما ذكره الدكتور لانغ عن شعور الهيبة الذي يحيط بقلوب زملائه وأصدقائه المثقّفين الأمريكيين أثناء القراءة، هو شعور ناشئٌ عن تدبّر النص فقط، وليس انبهارًا ببراعة لغة هذا الكتاب الخارق للمألوف، فهم يقرؤون ترجمات لمعانيه فقط، لا نصًّا عربيًّا فخم البيان ورفيع المقام.

وقد أتاحت لنا شبكة الإنترنت في هذا العصر فرصة اكتشاف مواقف كثيرة لشباب غربيّين من عامة الناس، وهم يتفاعلون بروحانيّة عجيبة مع تلاوات للقرآن تطرق آذانهم للمرة الأولى، بل شاهدتُ بعضهم يبكي ويخشع لسماعه بعض الآيات

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٠٦.

وهي تُتلى بصوت نديّ من دون أن يعرف معنى ما يسمع، ولو أنه استمع إلى لحنٍ شجيٍّ يحاكي تلك التلاوة فلا أظن أنه كان سينفعل إلى درجة البكاء. فإن كان هذا حاله وهو لا يفهم فكيف به إن تذوّق بلاغة اللغة، وتأمّل في فحوى الرسالة؟

وهنا لا بد من وقفة، فهل عرفت البشريّة في عصرها الحديث كتابًا قديمًا يتحدّى تقلّبات الزمن ليبقى حاضرًا بنصه وبلاغته ورسائله كالقرآن؟ لا شكّ في أنّ كل أتباع الديانات الأخرى يقدّسون نصوصهم القديمة، وهي أقدم منه، وما زالوا يترنّمون بها في معابدهم، ولكن هل يتجاوز الأمر حدَّ إقامة الشعائر؟

القرآن وحده ما زال حيًّا، ليس بتلاوته تعبّدًا فحسب، ولا احتفاءً بحضوره في المراسم، بل هو النصّ الوحيد الذي لم يخفت حضوره في المدارسات الأكاديميّة الرفيعة على مرّ القرون، كحضوره أيضًا في المناهج الدراسيّة والشواهد اللغويّة والتأمّلات الفكريّة الخاصة لكل فرد يبتغي البحث عن خلاصه فيه.

أليس هذا التفرّد مُلفِتًا؟ وهل يرقى أيّ نصٍّ مقدّس آخر إلى مثل هذا الحضور الجريء في الأوساط الأكاديميّة من دون أن يتعرّض لمشارط النقد والجرح، علميًّا وتاريخيًّا وفكريًّا. فالنوازل وحدها كافية لنقض قداسة (الكتاب المقدّس) لدى اليهود والنصارى اليوم، وما فيه من تناقضات ما زالت محل اجتهادات التبرير والتأويل.

## حوار شخصي

قبل بضع سنوات، وفي أحد أيام رمضان المبارك، وبينما كنت أقرأ سورة يوسف بعد صلاة الفجر، طرأ في ذهني سؤال ملحّ: لماذا التزم النبي يعقوب عليه

الصلاة والسلام الصمتَ والصبر عندما ادّعى أولادُه أنّ يوسف قد أكله الذئب؟ مع أن الآيات تدلّ على أنه كان يعلَم كذبهم. وسرعان ما توالدت الأسئلة أثناء القراءة، ولم تلبث الفتوحات أن تواردت من تلقاء نفسها، فلم أتمالك نفسي أمام رهبة ذاك الموقف المُفعَم بالاستنارة، إذ كنت أدير بالفعل حوارًا حيًّا مع كتاب الله وأتلقّى منه الأجوبة وكأنّها خُصِّصت لي.

وما إن طلعت الشمس، وقفلت عائدًا من المسجد، حتى دوّنت كل تلك الخواطر، لأجدها قد نضجت في مقال يستحقّ النشر.

كُتِب للمقال أن ينتشر بفضل الله كالنار في الهشيم، حتى وجدته متداولًا على الهواتف الذكية بكثافة ومذيّلًا باسم أحد الشيوخ الأفاضل، ولا أدري إن كان قد انتحله أم نُسِب إليه عن غير قصد منه، ثم راسلني بعض القرّاء يطلبون المزيد، وحثّني بعض الإخوة على مواصلة التدبّر على ذاك النحو، فكنتُ كلما انقدحتْ في ذهني أسئلة مماثلة شرعت في محاورة النص واستحضار الأجوبة.

ثم وجدت لذّة أخرى في تلقّي الدروس الشخصية من هذا الوحي المقدس، فإنْ كان النصّ ثابتًا لا يتغيّر، وإنْ كان تعدّد تأويلاته مقيَّدًا بأسباب النزول ومعاني المفردات، فإنّ الدروس والعبر والفوائد قد تتعدّد بعدد قُرّاء النصّ ومتدبّريه والمتفاعلين معه، بل قد أقتبس من نور إحدى آياته اليوم فائدة بحسب الحال والمقام وحضور الذهن وجودة القريحة، ثم أجد في يوم آخر وفي نفس الآية فائدة لم تخطر من قبل على البال[1].

---

(١) لذا رُوي في حديث ضعيف أن القرآن "لا يشبع منه العلماء، ولا يَخْلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه" [رواه الترمذي (٢٩٠٦) وقال: إسناده مجهول].

وكلما تجدَّد موسم التدبُّر في رمضان، كنت أعود إلى ملفاتي القديمة لأزيد في تدويناتي شيئًا جديدًا، مؤمّلا النفس بأن يأتي اليوم الذي تخرج فيه تلك المسوّدات إلى النور، ثم تقصر الهمّة عن إخراجها كما هي عادة التسويف، حتى انتبهتُ إلى أن الزيادة في فوائد القرآن لن تنتهي بانقضاء العمر، وذكرتُ مقولة القاضي عبد الرحيم البيساني "إني رأيتُ أنه لا يكتب أحدٌ كتابًا في يومه إلا قال في غَدِه: لو غُيِّر هذا لكان أحسن، ولو زيد هذا لكان يُستَحسَن، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل، ولو تُرك هذا لكان أجمل. وهذا أعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر"[١].

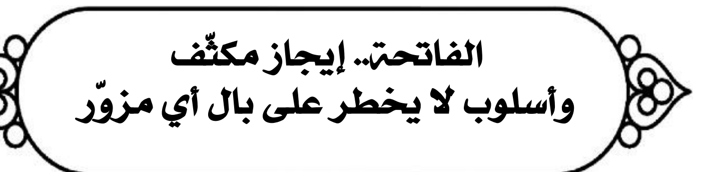
لذا قررت أن أجتهد في إخراج هذا الكتاب بالقدر الذي بلغه من دون تأجيل، عسى أن يجد به القرّاء ما يحثّهم على التدبّر، فخير البرّ عاجله. وإن بقي في العمر فضل فسأطمع بفرصة أخرى للزيادة على الكتاب في أجزاء لاحقة، والأمل معقود على توفيق الله وفيض أنواره.

اللهم "يا معلِّم آدم وإبراهيم علِّمني".

أحمد دعدوش

رمضان ١٤٤٣

(١) مع أن الشائع نسبتها إلى العماد الأصفهاني.



# الفاتحة.. إيجاز مكثّف وأسلوب لا يخطر على بال أي مزوّر

اعتاد المفسرون على التوقّف طويلًا عند كل كلمة من هذه السورة الافتتاحية، ليس فقط لأن همّة المؤلف تكون في أوجها عند البدء بتأليف الأسفار الضخمة، بل لأنها أيضًا فاتحة الكتاب التي نصّ النبي ﷺ على أنها أهم ما فيه.

فعن أنس رضى الله عنه، كان النبي ﷺ في مسير فنزل، ونزل رجل إلى جانبه، قال: فالتفت النبي ﷺ فقال "ألا أخبرك بأفضل القرآن؟ قال: بلى، فتلا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾"(١).

فإن أردتَ أن تقف على ما يثير الدهشة والذهول في همم السابقين، وفي ما يمكن استنباطه من فوائد هذه السورة العظيمة، فاقرأ معي مطلع تفسير "مفاتيح الغيب" لفخر الدين الرازي، إذ يقول "اعلم أنه مر على لساني في بعض الأوقات أن هذه السورة الكريمة يمكن أن يستنبط من فوائدها ونفائسها عشرة آلاف مسألة، فاستبعدَ هذا بعضُ الحسّاد، وقومٌ من أهل الجهل والغي والعناد. فلمّا شرعت في تصنيف هذا الكتاب، قدّمتُ هذه المقدمة لتصير كالتنبيه على أن ما ذكرناه أمر ممكن الحصول، قريب الوصول"(٢)، ثم انطلق في تعداد المسائل لتملأ المجلد الأول كاملًا، مستحضِرًا كل ما لديه من علوم اللغة والمنطق والكلام والتفسير. ومع أن

(١) النسائي (٨٠١١)، وابن حبان (٧٧٤).

(٢) تفسير الرازي، ج ١، ص ٢١.

حشد كل هذه الفوائد ضربٌ من المبالغة التي يستلزمها التحدي المذكور، إذ كان -رحمه الله- يسهب في التأصيل والشرح لقواعد العلوم المتنوّعة دون تقيُّد بموضوع التفسير، إلا أنّه ما كان ليجد المقدّمات التي تتيح له ذاك الإسهاب إلا في هذه السورة المعجزة.

وإن شئت أن تقف على مثال معاصر، فأحيلك إلى كتاب "الإسلام في سبع آيات.. الفاتحة منهاج حياة"، وهو المجلد الأول من سلسلة نذر لها الدكتور عبد السلام المجيدي حياته، إذ امتدت به رحلة التبصّر مع الآيات السبع لتغطي نحو ٣٥٠ صفحة، ما اضطره لاحقًا لإصدار كتاب آخر أصغر حجمًا، ليكون ملخَّصا قابلًا للتسويق بين محبّي القراءة السريعة، وسمّاه "مفاتح الفاتحة"، وقد كانت لي حوارات مصوّرة مع الشيخ الفاضل، وهي مبثوثة على شبكة الإنترنت.

وكي لا نقع الآن في فخ الإسهاب، فلنحدّد نقطة للانطلاق، ولتكن السؤالَ الذي طرأ على بالي عن شعور بعض الأشخاص الغربيّين الذين سمعت عنهم في وسائل الإعلام، ممن اقتحم الإيمان قلوبهم بدون استئذان لمجرد قراءتهم للقرآن، مع أن الكثير منهم كانوا يتصفحّونه في البداية ليكتشفوا "أخطاءه"، فإذ به يأسرهم منذ الصفحة الأولى.

لا بدّ أن لكل منهم قراءته وتجربته، وليس غرضي الآن استعراض تجربة أيٍّ منهم، فكيف ستكون تجربتي الشخصيّة إذن لو حاولتُ إعادة قراءة فاتحة الكتاب بعين شابٍّ ملحد أو متشكّك؟

لعلّ معظمنا لا يجد تلك الدهشة المأمولة، فنحن نقرأ الفاتحة تعبّدًا سبع عشرة مرّة على الأقل كل يوم في الصلاة، وقد يسهو الكثير منا عن تدبّرها كما يسهو عن معظم صلاته.

ولن أطيل في تذكيرك -عزيزي القارئ- بمشكلة أعمّ في مجتمعاتنا، فنحن معتادون أيضًا على حفظ أجزاء من القرآن الكريم منذ الصغر بدون استيعاب، فكنت أنا أيضًا ممن حفظ نصفه في سن الطفولة بدون أن أعي من معانيه إلا القليل، إذ لم يكن شائعًا أصلًا أن نسأل شيخنا الذي يتولّى مهمة التحفيظ عن معنى أي كلمة، فضلًا عن فهم تفسير آية، أو سبب نزول سورة.

سأفترض أني فتحت هذا المصحف للمرة الأولى بعد أن بلغت سن النضج بدون أن أؤمن بوجود إله، وأني لم أكن قد أصغيت لخطاب الإسلام من قبل، فلا بدّ أن تكون فكرتي المسبقة هي أن لهذا الكتاب مؤلّفٌ ما من بني البشر، فلما علمتُ أن صاحبه يدّعي أن الكتاب ليس سوى كلام الإله نفسه، من غير تحريفٍ ولا تبديل، اندفعتُ بحماس بالغ لمحاولة اكتشاف الملامح التي تؤيّد هذه النظرية أو تنسفها.

أول ما رأيته عند فتح الكتاب هو صفحتان مزخرفتان جميلتان، فلا مقدّمة تشرح ظروف نزول الكتاب وتدوينه، ولا صفحة إهداء للقراء. حسنًا، لا بدّ أني سأتوقع الاستهلال بنداء إلهيّ، يخاطب البشر بصيغة الاستعلاء ويطالبهم بالإصغاء، فلتكن على هذه الشاكلة مثلًا: "يا بني آدم، إني أنا الله منزل هذا الكتاب، فاسمعوا ما أقول لكم تفلحوا...".

أعـترف بـأن المثـال لا يتضـمّن مـن البلاغـة مـا يليـق، وربمـا تجـود القريحـة باستهلال أكثر براعة لو أردت الإتيان بـنصٍّ بـديع، إلا أنَّ المـراد هنـا هـو تصـوّر بدايـة مناسبة لكتاب يؤلِّفُه بشر ويدّعي أن صاحبه إله، فلا أتصوّر أن أيَّ أديب مبدع سيخطر له الخروج عن هذا الإطار.

خذ مثلًا رسائل النبي ﷺ إلى الملوك الذين دعاهم إلى الإسلام، ولاحظ معي كيف ابتدأها بخطاب مباشر يعرّف فيه بنفسه، ويدعو مباشرة لاعتناق دعوته، ومع أنـه لم يزعم في رسائله أنها نص موحىً به، إلا أنّي ألفت نظرك هنا إلى الأسـلوب البشـري عندما ينطق به إنسان يحمل رسالة للهداية، مع أنه بلغ ذروة الأدب.

ففي رسالته إلى النجاشي، نقرأ ما يلي: "بسـم الله الـرّحمن الـرّحيم مـن محمّـد رسول الله، إلى النّجاشيّ عظيم الحبشـة، سلام علـى مـن اتبـع الهـدى، أمـا بعـد، فـإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدّوس السّـلام المـؤمن المهـيمن، وأشـهد أنّ عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصـينة، فحملـت بعيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيـده، وإني أدعـوك إلـى الله وحـده لا شـريك لـه والموالاة على طاعته وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني، فإنّي رسول الله، وإنّـي أدعـوك وجنودك إلى الله عزّ وجلّ، وقد بلّغت ونصـحت فاقبـل نصيحتي، والسّـلام علـى مـن اتبع الهدى".

أما رسائله إلى بقية الملوك فكانت مقدماتها متشابهة، وهـذه إحـداها: "بسـم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الـروم، سـلام علـى

من اتبع الهدى: أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين.."[1].

لنعد الآن إلى القرآن الكريم، ولنقرأ الفاتحة: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ١ - ٧]. يا لها من مقدمة سريعة، كتلة واحدة مترابطة الأجزاء، لم أستطع تفكيكها والتوقف عند بعض مفاصلها حتى أنهيت قراءتها دفعة واحدة.

لا بدّ من عودة للتأمُّل، فأول ما لفت نظري -وأنا أقرأ بعين الشاكّ المتفحّص- في هذه العبارات الصغيرة المرتبة، أنها جاءت بصيغة الصلاة، فمع أنها مقدمة لخطاب الإله إلينا، إلا أنه لم يعرّفنا بنفسه بصيغة المتكلّم، بل بدأ بالحمد والثناء على نفسه، وثنّى بدعاءٍ على لساننا وكأنه يلقّننا كلمات نتوجّه بها إليه.

أمرٌ مدهشٌ بالفعل، وما أدهشني أكثر أني وجدت هذه الملاحظة لدى ملحد اكتشفها مثلي عندما قرأ الفاتحة للمرة الأولى قبل أن يعتنق الإسلام، وهو الذي حدّثتك عنه في المقدمة: الدكتور جيفري لانغ، فيقول في كتابه إن هناك نقلة دقيقة من الآيات الأربع الأولى التي تمجِّد الخالق إلى الثلاث الأخر التي تطلب الهداية، "بحيث إننا لم نلحظ هذا التغيّر، ولم نكن ندرك أننا كنا نقوم بالتضرّع بطريقة غير إراديَّة، وبحالة من شبه اللاوعي حتى انتهينا من قراءة فاتحة الكتاب. لقد بدا وكأننا خُدِعنا تقريبًا بقراءتها قبل أن تكون لدينا الفرصة لمقاومة ذلك"[2].

---

(١) البخاري (٧)، مسلم (١٧٧٣).

(٢) حتى الملائكة تسأل، ص ٤٣.

حسنًا، قد يبدو كلامه عن الخديعة مستفزًّا لك أخي المؤمن، ولكن أرجو أن تعذره فما زال يقرأ بعين الملحد المتشكّك، إذ يضيف قائلًا إنه بالرغم من عدم قصده النطق بهذا الدعاء فإنه قد بلغ غايته، وإنّه على وشك أن يقابَل بالاستجابة[1].

إذن فالاستهلال كان بتمجيد وثناء لطيف، ثم بدعاء على لسان القارئ نفسه. وسواء سمّيتَه إبداعًا، أو إعجازًا، فلا بد أن تقرّ معي بأنها فاتحة غير مألوفة، وتستحق التأمّل والإعجاب، وأنها ستترك في نفسك أثرًا لمتابعة قراءة هذا السِّفْر الضخم.

ولكن قبل المتابعة، دعني أعرض عليك رأي لانغ في هذه السورة، فهو من النمط الشكّاك الذي لا يكفّ عن طرح الأسئلة، حتى جعل من سؤال الملائكة لله تعالى: "أتجعل فيها من يفسد فيها.." فضيلة تجيز له المضيّ قدُمًا في التساؤل، ثم محاولةَ وضعِ الأجوبة من تلقاء نفسه، وهذا تسرُّعٌ لا نوافقه عليه لعدم امتلاكه من مؤهّلات الفقه الحدّ الأدنى، لكن يكفي أن تعلم عنه هذا لتكتمل لديك صورة المتمرّد وهو يسائل الفاتحة بعد أن قضى عشر سنوات في متاهات الإلحاد.

لفت نظري انزعاجه من تذكير السورة له بيوم الدين في الآية الثالثة، إذ توقظ فيه القلق من الحساب مع أنها جاءت بعد التذكير برحمة الله، وكان يتمنّى أن تُؤجَّل هذه العبارة حتى يرتاح أكثر مع القرآن كي لا يشعر بالنفور.

ومع أن لانغ لم يفصح عن مشكلته النفسيَّة إلا أنّي أراها جليَّة واضحة، فهي كامنة في نفس كل ملحد غربيٍّ نفر من الدين اليهودي-المسيحي لأنّه لم يكن متوازنًا في تقديم الرحمة الإلهيّة على غضبه ونقمته، ولسنا الآن بصدد الخوض في فظاعة

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٣.

فكرة توريث "الخطيئة البشرية" من آدم لبنيه، حتى "اضطر" الإله لإرسال "ابنه" إلى الأرض حتى يلقى مصرعه فداءً لبقيّة البشر، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، لكن دعني أقرأ لك ما كتبه لانغ لتدرك ما أقول: "فالتوكيد على رحمة الله وعطفه وحنانه ومحبته لم ينفّرنا من الدين قط، ولكن ما نفّرنا منه الوعيد بيوم القيامة واللعنة الأبدية التي كان من المستحيل علينا أن نوفّق بينها وبين الرحمة والعطف"(١).

أكاد أشتَمُّ رائحة الهرطقة الأوروبية من هذا النص، أو حتى رائحة النزعة الإنسانوية إن شئت، والتي ظهرت على أنقاض الدين في أوروبا بعد نصب هياكل العلمانية بالحديد والنار، بدءًا من الثورة الفرنسية وما بعدها، فالإنسان بات محور الكون، وهو لا يقبل خطاب الاستعلاء، حتى من الإله إن وُجد.

ولكن دعنا من هذا كله، ولنقرأ النص مجدَّدًا بعين المتجرِّد، فلا أشك في أنك ستلاحظ مثلي أن الآية الأولى (البسملة) تضمّنت الابتداء بالاستعانة باسم الله، وهو المتكلّم نفسه، والتثنية باثنين من أسمائه: الرحمن والرحيم، فالأول يدل على اتساع رحمته، وعلى الصفة القائمة به سبحانه، والثاني يدل على دوام رحمته، وعلى تعلّقها بالمرحومين، وكأن أول ما وصف به الإله نفسه هو عظمة رحمته كمّيًّا وزمانيًّا، ونزولها على خلقه.

وبعد آية الحمد، كرَّر نفس الاسمين في آيةٍ مستقلَّة ثالثة، قبل أن يذكّر القارئ بأن الله هو المالك ليوم الحساب، دون أن يضمّن تذكيره أي وعيد بعقاب، أو حتى يقرنه بألفاظ وصفات الهيمنة والقدرة التي لا تفارقه أصلًا، فما يضيره إن ابتدأ رسالته للبشر بالقول: بسم الله الجبّار العظيم؟ أو لنقل إنه ابتدأ بالرحمن الرحيم في البسملة

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٢.

الأولى ثم أتبعها في الثالثة بأوصاف عظمته ليُحدِث في النفس نوعًا من التوازن بين الرجاء والخوف، إلا أنه لم يفعل، بل اكتفى بتذكيرنا بالغاية من وجودنا، وأن ثمّة يوم للحساب في النهاية.

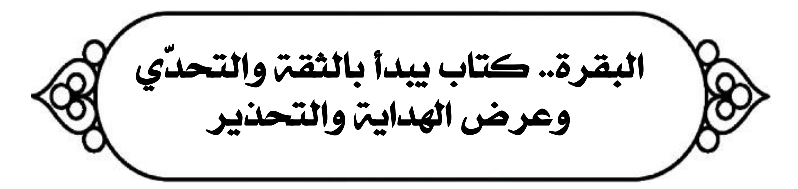
وبالرغم من استياء الدكتور لانغ، فقد وجد في القفزة الصغيرة نحو الدعاء ما يُطمْئِن قلبه، وأنا أجد في قراءتي لها ما يثير دهشتي مجدّدًا، وما أزعم أنه لن يخطر على بال أي أديب عبقري يحاول أن يفبرك كتابًا وينسبه زورًا إلى الإله، فالنص ينتقل من الحمد والثناء وطلب الاستعانة بالله إلى دعاء مباشر بطلب الهداية منه، وكأنه يجبر القارئ الباحث المتشكّك الجاحد على أن يثني ركبتيه ليتضرّع إليه قولًا وفعلًا، قبل أن تعاجله النفس بدواعي التمرّد، فتنطق السورة بكلمات الدعاء على لسانه مباشرة بدون أن تحثّه بكلمة "قل"، مع أن القارئ يعلم مسبقًا أنه لم يفتح كتاب ابتهالات وأدعية.

الفاتحة تتعامل مع الألوهيّة والربوبيّة على أنها مسلّمات، ولا تناقشها، وفي الوقت نفسه لا تقحم القارئ في إيمان قسري. هي بالضبط أروع ما يمكن أن يكون عليه الخطاب الإلهي إذا تصورتُه مجرّدًا بدون حُكم مسبق، حيث يخاطبني الإله بكلمات مفهومة، وبحروف معلومة، ثم أرى خطابه ينضح بسِمات الألوهية في كل حرف، من دون أن أملك أمامها سوى الإنصات.

لا عجب إذن إنْ علمتَ أن النبي ﷺ قال عن هذه السورة: (والذي نفسي بيده ما أنزلت في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور، ولا في الفرقان مثلها. وإنها سبع من المثاني، والقرآن العظيم الذي أعطيته)[1].

---

(١) رواه الترمذي وقال هذا حديث حسن صحيح.



# البقرة.. كتاب يبدأ بالثقة والتحدّي وعرض الهداية والتحذير

إذا استشعرتَ معي -عزيزي القارئ- شعور الدهشة الذي تملّكني في قراءتي لفاتحة الكتاب، فتابع معي التجربة نفسها في الصفحة التالية، وتخيّل أننا نفتح هذا الكتاب للمرة الأولى، وأنّنا سنقرؤه بعين المتشكّك، ونسائله بعقل الباحث المتجرد.

فبعد أن فرغنا من تأمل تلك العبارات السبع المسطّرة في وسط صفحة مزخرفة بعناية، ستنتقل عيوننا تلقائيًّا إلى الصفحة المقابلة، لنرى في وسطها خمس آيات تبتدئها البسملة.

سأستنتج تلقائيًّا أن البسملة جملة افتتاحيّة تتكرّر في بقية السور، ولكن سأتوقّف قليلًا عند التسمية، فلماذا سُمِّيت السورة التالية مباشرة بالبقرة؟ والتي سأكتشف لاحقًا أنها أطول سور القرآن كله، وأن ثمة أحاديث وآثارًا رُويت في فضائلها.

اللافت في القرآن أنّ سُوَره الطوال تتضمّن جملة من العناصر، فهي تجمع الأحكام الشرعيّة والقصص وتعليمات العقيدة، فلو كان صاحب هذا الكلام من أدباء البشر لسارع إلى ذهنه وضع عنوان جامع، وهو ما قد يبدو متعذّرا أمام هذا التنوّع في عناصر كل سورة.

وقد يجتهد كلٌّ منا في اقتراح سبب تسمية كل سورة، وقد يترجح لدينا أن التسمية تتعمّد تخليد اسم نبي ما، أو حدث ما، لتتجه الأنظار شطر تلك الكلمة في السورة، حتى لو لم تكن هي المحور الذي تدور حوله بقية العناصر.

أما إذا كنتُ أقرأ هذه السورة مبتدئًا، فسيخطر على بالي أن للبقرة ذِكرٌ يستحق التوقف في موقع ما من السورة، وسأتشوّق لاكتشافه لاحقًا، إلا أني سأتوقّف الآن عند مطلع السورة التي تصادفني في مقابل الفاتحة.

البداية بثلاثة أحرف غير مفهومة: ﴿الٓمٓ﴾، ومهما اجتهدتُ في تقليب كتب التفسير فلن أجد تأويلًا قاطعًا، وسأجد ترجيحًا للقول: إنها من باب التحدّي الذي سيتكرّر في مطالع سور أخرى، لتذكيري بأن هذا الكتاب إن كان مكتوبًا بحروف يستخدمها البشر، فإنهم سيظلّون عاجزين عن تقليده.

لا بدّ من الاعتراف بأنه أسلوب جديد في التحدّي، ولا أظن أنه سيخطر على بال أيّ أديب مبدعٌ أيضًا، لذا سأتابع القراءة بعقليّة من يقبل التحدّي، وأقرأ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، ثم أتفكّر: أليس عجيبًا أن يهجم النصّ مباشرة على قلبي المتشكّك -جدلًا- ليهزّه قائلًا: إن هذا الكتاب وحي إلهيٌّ لا ريب فيه؟!

دعك الآن من التصديق أو التكذيب، وتأمّل معي في مباشرة الخطاب، وكيف يمسّ الوجدان تلقائيًّا، وكأنه يعلم مُسبقًا مكمن الدّاء، فيمدّ له اليد بالدواء.

أشعر أيضًا أنّ الخطاب موجّه بالدرجة الأولى إلى اليهود والنصارى، وهم أهل كتُب يفاخرون بها، مع كل ما يقرّون به من شوائب تُوسَم بها عملية التدوين. فكُتبهم ليست محفوظة من التحريف والنقص والنسيان، وما زالت معاول النقد التاريخي والعلمي تنهال على بنيانها، أما الصفحة الثانية من القرآن فتعلن بكل ثقة: "ذلك الكتاب لا ريب فيه"، وكأنها تبادر الناقد بالتحدّي.

المدهش أيضًا أنّ الآية نفسها وصفت هذا الكتاب بالهدى، فهو ليس كتاب علمٍ وفكرٍ وتاريخٍ فحسب، بل يهدف إلى الهداية أساسًا، ولمن؟ الجواب: للمتّقين حصرًا، فالتقوى شرطٌ لاكتساب الهداية، أمّا من جاء بقلب مريض عابث، يبحث بين الحروف عمّا يوافق هواه، فلن يجد سوى التقريع. وأما إن رامَ البحث عن متعة أدبيّة، أو معلومات لغويّة وتاريخيّة، فحسْبه أن يلتقط من الكتاب مبتغاه، وسيخرج منه بدون أن يقتبس شيئًا من نور الهداية.

حسنًا، وإن كنتُ مبتدئًا ولم أعرف التقوى بعد، فكيف أقدّم نفسي لهذا الكتاب الفريد؟ الجواب يأتي معدّدًا الصفات المطلوبة: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ٣– ٥].

انتهت بسرعة الآيات الخمس التي تتوسّط الصفحة المزخرفة، وأنا ما زلتُ أَسيرَ الدهشة الأولى.

سأعيد القراءة وأتريّث، وستهدأ النفس قليلًا وأنا أكتشف أنّ الخطاب موجَّه هاهنا للنبي ﷺ في قوله "بما أُنزِل إليك"، وكأنها رسالة منقولة إليّ عن طريقه، ثم أتأمّل مليًّا في الصفة الأولى للمتقين: "يؤمنون بالغيب".

لا بدّ أنّ تقرع هذه العبارة قلبي، فالعالم المادّي الذي أعيش فيه جعل من إنكار الغيب الشرط الأول لدخول "نادي العِلم"، ولا يكاد يجرؤ مثقّف اليوم على التلميح بأن هناك أسبابًا ميتافيزيقيّة لتفسير نشوء الكون والحياة إلا ويُطرَد أوّلًا، ويُحارَب ثانيًا. وها هُو الكتاب يطالبني في بداية رحلتي معه بأن أنفتح على الإيمان بالغيب قبل كلّ شيء، وإلا فلن أدخل نادي المتّقين.

ثم تأتي الشروط العملية: الصلاة والإنفاق في الخير، ثم يتكرّر اشتراط الإيمان مجدّدًا، وهو الإيمان بصحّة الوحي الذي بين يدي، ثم بما أُنزِل سابقًا على الأنبياء الراحلين، ولو كان تراثهم قد حُرّف أو ضُيّع، ثم اليقين بأنّ البعث قادم للحساب، ومن يلتزم بكل هذا فهو ليس فقط في زمرة المتّقين، الذين كرّر النص اتّصافهم بالهداية مرة أخرى، بل سيكون أيضًا من المفلحين، أي الناجين.

سأعتبره وعدًا مهمًّا بالهداية والنجاة، وأنا ما زلت في بداية الطريق، وسأقلب الصفحة لأقرأ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [البقرة: ٦ و٧]. ياله من خطاب ينخلع له القلب، وهو موجّهٌ للنبيّ ﷺ بصيغة المُخاطَب: "أأنذرتهم"، وفيه تسلية له بعد ما واجهه من إنكار وتكذيب، إلا أنّه يضعني أيضًا -وأنا أقرأ بعين المتشكّك- في موقف مُحرج، فثمّة فئة من الكفار لا يُجدي معها الإنذار، والآية تتوعّدهم بإغلاق باب الهداية نهائيًّا في وجوههم، ثم بعذاب عظيم.

دعك من البلاغة وحُسن البيان، ولنحاول مجدّدًا استيعاب الرسالة، فهذا الكتاب لا يهادِن ولا يساوم، ولو كان مؤلفه بشرًا يدّعي النبوة لسبق إلى ذهنه استلطاف الأتباع ووعدهم ابتداءً بالنصر والتمكين وامتلاك ناصية الحضارة والثراء، أو ربما قدّم لهم -على الأقل- وعودًا شخصيّة بالاستقرار النفسيّ والتصالح مع الكون والمجتمع، كما يفعل "أنبياء" حركة العصر الجديد[١] المزيّفون في هذا

(١) حركة العصر الجديد هي تيار فكري واسع الطيف، يشمل فلسفات وأديانًا متعددة نشأت في منتصف القرن العشرين، وهي امتداد لمذاهب وأديان باطنية قديمة (غنوصية)، نجد آثارها لدى الهندوسية =

العصر. لكن الرسالة هنا تبتدئ بتحديد ملامح الفريقين، فمن أراد الهداية فعليه أن يلتزم بشروطها، ومن كفر بإرادته فلن ينفعه الإنذار والتبليغ بعدما خُتم على قلبه.

سيثير هذا الخطاب الحادّ غيرتي، فلو كنتُ أقرؤه وأنا ما زلت متشكّكًا فسأسارع لافتراض أنّي لست مشمولًا بهذا الوصف: "خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ"، وسأزعم لاشعوريًّا أني منفتح الذهن ومنشرح الصدر لأي دعوى، طالما كانت لا تعارض العقل.

اللّافت أن الآيات التالية تصف حال فئة أخرى، أي فئة المنافقين، وكأنّها تخبرنا أنّ هؤلاء لا يجدي معهم الخطاب، فهم ليسوا جهَلة بحاجة إلى تعليم، إذ بلغتْهم الرسالة، وأقيمت عليهم الحُجّة، غير أنهم لا يريدون التصديق، لذا وصفتهم الآيات بأنهم "يخادعون الله"، و"في قلوبهم مرض"، وأنهم "المفسدون" و"السفهاء".

والعجيب أن كل صفة لها مقابل، فإن كانوا يظنّون أنهم يخادعون الله فثمّة آية تقول: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩]، وإن كانت قلوبهم مريضة ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، وإن كانوا يرون المؤمنين سفهاء ومفسدين فالردّ حاسم: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢]، ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣]، وإن كانوا يستهزئون بالمؤمنين فالجواب القارع هو: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥]، ثم تنتهي

---

= والبوذية والطاوية، وقد تقدم نفسها مجردة عن الأديان المعروفة داخل إطار اليوغا والماكروبيوتك وطقوس وفلسفات أخرى تمس حياة الناس اليومية.

للمزيد انظر مقال "حركة العصر الجديد" في موسوعة السبيل على الموقع al-sabeel.net

الصفحة بآية جامعة: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٦].

التقط أنفاسك بعد هذا السيل العارم من الردود، ولنتأمّل في تلك النقلة العجيبة من أوصاف المهتدين المفلحين في الصفحة الأولى المزخرفة إلى هذا الخطاب الرهيب، الذي ينهي الصفحة الثانية بوعيد بامتناع الهداية.

## الانتقال إلى التحدّي

لعلّك تشاركني الشغف بمتابعة الاكتشاف، وستجد معي في الصفحة التالية أمثلة تُضرَب لمن يقرّر عدم التصديق، ثم نداءً عامًّا للناس: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١]، تليها آية تذكير بنِعم هذا الرب: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢].

فإن تساءلتَ معي –ونحن نفترض القراءة بعقل المتشكّك أصلًا– وماذا بعد هذا النداء والتذكير بنِعَمٍ لم نؤمن بها بعد؟ فإليك التحدي: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣].

إذن فاحتمال الريب والشكّ قائم، والجواب عمليٌّ ومنطقيٌّ، بل فيه من التواضع ما يكفي لفتح الحوار، إذ يقرّ بأن هذا الكتاب الذي بين أيدينا وحيٌ منزلٌ على "عبدٍ لله"، نافيًا عن الرسول صفات التألّه، ليقتصر مصدر الإعجاز على الرب المتكلّم بهذا الكلام وحده، وهو الذي يتحدّى ويطالب بأن نحشد كلّ من يمكن أن نستقوي بهم لنُبدع نصًّا واحدًا يضاهي هذا النص.

وقبل أن نعزم على المحاولة، يعاجلنا النص بنتيجة واضحة ومنصفة: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]، أرأيت معي هذه الثقة المطلقة؟ فالنص يجزم بأننا لن نفعل، وهو يتحدّى ويعلن مسبقًا أنه سينتصر، ثم يتلطّف بالتحذير من العاقبة التي يضعها بين أيدينا: "فاتقوا النار".

وقبل أن تحتدّ فينا نزعة المكابرة، يأتي الوعد المقابل: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥]، فالحُجّة أقيمت الآن: علينا أن نأتي بسورة من مثله، وإن لم نفعل فلْنتّقي النار، ولْنطمح إلى الجنة.

ألا يبدو عرضًا مُنصِفًا؟ لو كنتُ متشكِّكًا حقًّا فلا أظن أني كنت سأشرع في المحاولة، لعلمي بأني لا أملك أدوات التحدي، بل كنت سأبحث في المراجع القديمة والحديثة عمَّن سبقوني إليه، ممن يُفترض أن يكونوا فطاحلة الشعر والأدب، ثم أتحقّق مما أبدعوه، وأقارن بعيني وأذني المجرَّدتين عن أدوات النقد الاحترافي بين النصّين المتقابلين: السورة القرآنية والنص البشري، ولن أكتفي بمقابلة كل مواطن البلاغة والتصوير والإيقاع الموسيقي بما ينبغي أن يماثلها في النص الآخر، ولن أتوقّف كثيرًا عند محاولات استنساخ القصص والعِبر، بل سأقف مطوّلًا عند كل كلمة من السورة القرآنية عندما أستشعر فيها صدق صدورها عن مصدر غير بشريّ، وسأبحث في أعماق نفسي عن أي شعور مماثل عند قراءة كل كلمات النص المقابل.

الكـلام صـفة المـتكلّم، وكـل إنـاء ينضـح بمـا فيـه، فقـد يحـالف الحـظُّ أحـدَ الفطاحلة في محاولته فيُبدع نصًّا يبلغ الغاية في الإتقان، إلا أنـه لـن يعلـو قـدره البشـري مهما اشرأبّ عُنُقَه، ولن ينفُذ خيالُه من أقطار السـماوات والأرض، فضـلًا عـن بلوغـه عظمة الملكوت.

وإن لـم أقـم بكـل هـذه الخطـوات، متجـرّدًا -مـا اسـتطعت- مـن كـل نزعـات التحدّي والاستعلاء، فلستُ سوى عابث مكابر.

## حوار مع الجميع

هل تذكر الآن وقفتي الأولـى في مطلـع السـورة، عنـدما تسـاءلنا معًـا عـن سـبب تسميتها بالبقرة؟ ربما ستُفاجَأ إن أخبرتك أنهـا لـم تُـذكر قبـل الآيـة السـابعة والسـتّين، فبعدما فرغ هذا النص المُعجز من وعيده للجاحدين والمنافقين، أخذ يسرد قصـة آدم مع إبليس، لكونهـا مرتكـز قصـة التكليـف: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾ [البقرة: ٣٠]، وما إن فرغ منها حتـى اتجـه بخطابـه المباشـر إلـى بنـي إســرائيل: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]، فلمّا عدّد نِعَمَه عليهم ذكّرهم بقصة البقرة، وهي بقرةٌ أمرهم نبيهم موسى عليه السلام بأن يذبحوها كي يكتشفوا القاتل الحقيقي لإحـدى الجـرائم التي هزّت مجتمعهم قبل نحو ثلاثة آلاف سنة.

القصة لها تفاصيلها الشـائقة، وفيهـا دروس وعـبر، كمـا أن اختيـار تلـك البقـرة، دون سواها، له قصة أخرى ذُكِرت في السيرة ولم يذكرها القرآن، إلا أنه سمّى السـورة

كلها بالبقرة إحياءً -كما يبدو- لذكرى تلك المعجزة الباهرة، وربما جذبا لانتباه القارئ نحو قصة بني إسرائيل، فالموضوع الأساسي للسورة هو الحوار مع اليهود والنصارى.

ولكن مع ذلك، فإني عندما أقرؤها بعين الملحد، الذي لا يؤمن بالغيب -ولا أقول اليهودي أو النصراني- أجد أنها تحاورني كما أحاورها، وتقيم عليّ الحُجّة البالغة.

"لا ريب فيه" حقًّا، ولكن التصديق يحتاج إلى تجرّد فقط!



## آل عمران.. عندما أخطأ الصحابة

ربما لا يختلف اثنان من أهل السنّة، حتى من العوام، على أن الصحابة بشر غير معصومين، وأنهم يخطئون كما يخطئ من جاء بعدهم من المسلمين. ومع ذلك، فنحن حتى اليوم منقسمون إزاء مواقف متباينة من الصحابة، حتى فيما بين أهل السنة أنفسهم، دون غيرهم من الطوائف.

يقول ابن تيميّة: "الصحابة يقع من أحدهم هَنَات، ولهم ذنوب، وليسوا معصومين، لكنهم لا يتعمّدون الكذب، ولم يتعمّد أحد الكذب على النبي ﷺ إلا هتك الله ستره"[1].

وفي ضوء هذا الفهم، أردت أن أقرأ، بل أحاور، سورة آل عمران، وتحديدًا الجزء الذي أنزله الله من عليائه على أولئك الصحابة بعد عودتهم منهكين نفسيًّا وجسديًّا من غزوة أُحُد، وأدعوك عزيزي القارئ لخوض هذه التجربة معي.

روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: إن النساء كنّ يوم أُحُد خلف المسلمين يُجْهزن على جرحى المشركين، فلو حلفتُ يومئذ رجوت أن أبرّ أنه ليس أحد منّا يريد الدنيا، حتى أنزل الله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٢][2].

---

(١) ابن تيمية، منهاج السنة النبوية، ج١، ص٣٠٦.

(٢) مسند الإمام أحمد (٤٤١٤)، وقد ذكر ابن كثير في الجزء الرابع من البداية والنهاية أن الرواية فيها ضعف.

أي أنّ عبد الله بن مسعود لما رأى إقبال المسلمين على الجهاد في ذاك اليوم العصيب، إلى درجة انخراط النساء أيضًا في المعركة للإجهاز على الجرحى في الميدان، وليس بعد الأسر، اعتقد أنّهم قد بلغوا ذروة الإخلاص، حتى كاد يحلف على ذلك، ثم فوجئ بانقلاب كَفّة المعركة لصالح المشركين، لتنكشف لاحقًا فداحةُ الخطأ الذي ارتكبه الرّماة على الجبل، وهم الذين نزل فيهم قوله تعالى: "منكم من يريد الدنيا".

قد تظنّ عزيزي القارئ أنّ العتاب هنا موجَّه للمنافقين، لكن الحقيقة غير ذلك، فالآية نفسها تتحدث عن العفو عنهم: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، إذن فهم صحابة مؤمنون، وقد نالوا العفو بعد ذاك الخطأ الفادح.

يقول المؤرّخون إنّ النبي ﷺ بعدما قسّم جيشه اختار من أصحابه خمسين راميًا بالسهام وأمّر عليهم عبد الله بن جُبير، وجعلهم على جبل "عينيْن" المقابل لجبل أُحُد، وقال لهم: (إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هَزمنا القوم ووطأناهم، فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم)[1]، أي لا ينبغي لهم مغادرة هذا الموقع الحسّاس حتى التأكّد من انتهاء المعركة، لأنّ دورهم هو حماية الجيش في الميدان.

وتتمّة القصة معروفة، فما إن رأى الرماة بوادر هزيمة المشركين حتى تخلّى ثلاثة أرباعهم -كما في بعض الروايات- عن موقعهم ونزلوا مسرعين للفوز بالغنائم،

---

(١) صحيح البخاري (٢٨٧٤).

وقائدهم عبد الله بن جبير يصيح بهم: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ ثم كانت الفاجعة، فقد التفّ المشركون عليهم من الخلف وقتلوا البقية الصامدة على الجبل، ثم أعادوا الكرّة على المسلمين، فقتلوا منهم سبعين شهيدًا، واختلط الحابل بالنابل، فلم يصمد حول النبي ﷺ سوى اثني عشر رجلًا[1] كما في رواية البخاري، أو سبعة من الأنصار واثنين من المهاجرين كما في رواية مسلم[2]، وانتهت المعركة بحسرة شديدة، حتى صرخ فيهم أبو سفيان -الذي كان قائد المشركين آنذاك- "يومٌ بيوم بدر، والحرب سجال".

لا شكّ في أنّها قصة مؤلمة صادمة، فقد كانت أوامر النبي ﷺ للرماة في غاية الوضوح، كما لم يقصّر قائدهم ابن جبير في تذكيرهم بتلك الأوامر الصارمة، ومع ذلك خالفه معظمهم ونزلوا طمعًا في حطام الدنيا!

بل إنّ الخوف دفع الآخرين للفرار أيضًا، حتى لم يبق مع النبي إلا ذاك العدد القليل وهو ينادي (مَن يردّهم عنا وله الجنة؟)، حتى قُتِل سبعة بين يديه، فقال ﷺ: (ما أنصَفَنا أصحابُنا)[3]، ويا له من عتاب في غاية اللطف مع هول الموقف، إذ لم يتهمهم بالخيانة كما يفعل أي قائد عسكري، بل وصفهم بعدم الإنصاف فقط.

لم أستطع مقاومة إلحاح الأسئلة عن سبب هذا الخذلان، ولم أجد مبرِّرًا أكثر إقناعًا من ضعف النفس البشرية، فالكثير من هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم كانوا ما يزالون حديثي عهد بالإسلام، ولم يتملّك الإيمانُ قلوبهم بما يكفي للالتزام بذاك

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) صحيح مسلم (٣٤٤٧).

(٣) المرجع نفسه.

الأمر العسكري الصارم، قبل أن ينكشف ضعف الآخرين أمام رهبة الموت عندما انقلبت كفّة القتال لصالح العدو.

ولعل الذي رجَّح لديّ هذا الرأي أن البعض أخذوا يتساءلون بعد المعركة بصراحة: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله بالنصر؟[1] وهؤلاء ليسوا من المنافقين أيضًا، فالجواب الذي جاء به الوحي لاحقًا يكشف أن الخطاب موجّه للصحابة الكرام، أو لفريق منهم على الأقل.

هنا كانت بداية الجواب الإلهي: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، أي أنّ الله لم يخلف وعده معهم، بل كانوا يحسّون (يحصدون) المشركين في بداية المعركة، ثم وقع الفشل عندما تنازعوا وعصوا أمر الرسول.

ولاحظ معي أيضًا أنّ الأمر لم يقتصر على الهزيمة، فتقول الآية نفسها: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي أن الله نجّاهم من القتل ليبتليهم لاحقًا بامتحان آخر، وهو امتحان الإيمان والصبر والتعلّم من الدرس، بل منّ عليهم بأن عفا عنهم، مع أنهم يستحقّون أكثر مما نزل بهم[2]، وفي هذا ما يكفي لبيان القصور البشري لدى الصحابة، وهم خير القرون، رضوان الله عليهم.

---

(١) صفوة التفاسير، ص ١٩٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٠٠.

أما الآية التالية فيبدو أنّها تخصّ الفريق الآخر بالعتاب الشديد، ممن فرّوا من الميدان بعد انقلاب النصر إلى هزيمة، فتقول: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٣].

مع ذلك، وقبل أن يُطْبق الغمّ على صدور الصحابة من شدة العتاب الإلهي، وهم أرهف الناس قلوبًا، يأتي التخفيف في الآية التالية: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، فقد روي في أحاديث عدة أن الله أنزل عليهم النعاس وهم في أرض المعركة ليخفّف عنهم الغمّ، وذلك بعدما تفرّقت الصفوف وانجلى الغبار. والمدهش أن النعاس لم ينزل إلا على المؤمنين منهم، بما فيهم العصاة الذين تسبّبوا بالهزيمة، أمّا المنافقون فحُرموا النوم وظلّوا يقظين مترقّبين عقوبةً لهم: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وهذا يؤكّد مرة أخرى أن الذين ارتكبوا ذاك الخطأ هم فريق من الصحابة الكرام، وليسوا منافقين، فقلوبهم معرَّضة للفتن مثلنا، والشيطان قد ينال منهم مع أنّ النبي ﷺ ما زال حيًّا بين ظهرانيهم، والآية التالية تكشف ذلك بجلاء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾ [آل عمران: ١٥٥].

ومرّة أخرى، يأتي التذكير بالعفو الإلهي، فيختتم الآية به: ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾، وكأن القرآن يقطع الطريق في كل مرة على المنافقين والمشركين

كي لا يشمَتوا بالمؤمنين على خطئهم، وكي لا يستولي الأسى على قلوبهم أيضًا، لا سيّما وأنهم خارجون للتوّ من معركة مؤلمة.

هنا يأتي الأمر الإلهي للنبيّ أيضًا بأن يعفو عنهم، ولو كان جنرالًا في دولة ديمقراطية حديثة لاعتقلهم فور عودتهم إلى المدينة، وأقام لهم محكمة عسكرية، ثمّ قضى عليهم بالسجن المؤبّد، وربما بالإعدام بتهمة الخيانة العظمى. أمّا لو كان ديكتاتورًا فما كان سينتظر إجراء المحاكمة حتى يتشفّى منهم بعدما خذلوه في الميدان وكادوا يتسبّبون بمقتله، لكن أمارات النبوة لا تفارقه في أحلك الظروف، فاقرأ معي كيف جبَله الله على الرحمة قبل أن يوجّهه إلى التصرّف المطلوب: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وفي آية تالية يمنّ الله على الصحابة مرة أخرى برحمة رسوله عليهم ولطفه بهم: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وربما لم تنكشف لهم رحمته بهم من قبل كما في ذاك الموقف، فلم ينهرهم بعد عصيانهم لأمره المباشر الصريح، ولم يعاقبهم، واكتفى بأن يتلو عليهم العتاب الإلهي المنزل لتأديبهم، إذ ما زالت الآيات تتوالى في التأنيب والتحذير والتوجيه: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

تخيّل معي -عزيزي القارئ- مشاعر الصحابة وهم يستمعون إلى تلك الآيات النازلة من السماء تتلى على لسان نبيّهم، واستحضر معي مشهد البكاء والنحيب كلما تكرّرت تلك الآيات على مسامعهم وألسنتهم في قيام الليل.

وقبل أن أستدرّ دموعك، دعني أكمل لك القصة، فالمعركة لم تكن قد انتهت بعد، إذ ندم المشركون على عدم استكمالهم للمعركة حتى الإجهاز على المسلمين واستئصال الدعوة المحمّديّة كلها، وحدّثوا أنفسهم بملاحقة المسلمين إلى المدينة المنورة، ومهاجمتهم في عقر دارهم، فلمّا بلغ النبي ﷺ النبأ، وكان ذلك بعد يوم واحد فقط من المعركة، نادى مناديه في الصحابة للاستعداد للقتال مرة أخرى، على ألّا يخرج منهم إلا من كان مشاركًا في معركة أمس.

وكأنّها كانت فرصة لتصحيح الخطأ والتوبة، إذ حفلت كتب السيرة بأقوال الصحابة الذين هرعوا لتلبية النداء، بالرغم من كل ما أصابهم من ألم نفسي وجسدي، وسأذكر لك منها مثالًا واحدًا عن رجل مجهول، قد لا يكون من كبار الصحابة، إذ روى أبو السائب أن رجلًا من أصحاب رسول الله ﷺ من بني عبد الأشهل، كان شهد أحُدًا، قال: شهدت أحُدًا مع رسول الله ﷺ أنا وأخي فرجعنا جريحين، فلما أذّن مؤذّن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو، قلت لأخي -أو قال لي- أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ؟ والله ما لنا من دابة نركبها، وما منا إلا جريح ثقيل، فخرجنا مع رسول الله ﷺ، وكنتُ أيسر جراحًا منه، فكان إذا غلب حَمَلْته عقَبة ومشى عقبة، حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون[1].

وهنا برز دور المنافقين أكثر من ذي قبل، إذ سارعوا لتخويف الصحابة ممّا سيلقونه، وأخذوا ينشرون الشائعات عن حشد قريش للمقاتلين من القبائل للقضاء

---

(١) تفسير ابن كثير، ص ٧٢.

على المسلمين. وفي المقابل، برزت قوّة إيمان الصحابة، وهم الذين كانوا قد فشلوا للتوّ حتى نزل القرآن بعتابهم، فإذا بالآيات تُثني الآن على موقفهم البطولي النادر: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٢ - ١٧٤].

ولاحظ هنا جبْر الخواطر المنكسرة في قوله "فانقلبوا"، فسبحان الله! كيف كان انقلاب الهزيمة إلى نصر، وكيف أثمرت التوبة والندم سريعًا خلال يوم واحد فقط.

يقول ابن كثير في تفسيره[1] إنّ أبا سفيان عندما علِم بأن المسلمين سبقوهم للسير في أثرهم، أرسل إلى النبي ﷺ يقول له: "موعدكم بدر، حيث قتلتم أصحابنا"، إذ كانت غريزة الانتقام تملأ قلوب المشركين كَمَدًا بعد هزيمتهم الأولى في بدر، فردّ عليه النبي ﷺ بالموافقة، ووصل بجيشه إلى بدر فعلًا، ونزلوا إلى السوق وابتاعوا فيه ومكثوا مدّةً بانتظار قدوم جيش قريش وحلفائها المزعومين، لكن الخوف ألزمهم بيوتهم مع أنّ المعركة الأولى كانت لصالحهم، فتمّت بذلك نعمة الله ومنّته على الصحابة التائبين المجاهدين الصابرين، وربحوا الجولة الثانية بدون إراقة قطرة دم واحدة، وعادوا إلى ميدنتهم مرفوعي الرؤوس، وقد رضي الله عنهم وجبَر خواطرهم: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٤]، وأي فضلٌ أعظم من هذا؟

(١) المرجع السابق، ص ٧٣.

## تصحيح المناهج

المؤسف أني لم أتعلّم هذا الدرس في صغري، فقصّة غزوة أحد رُويت لنا في المدارس على أنها كانت الهزيمة الأولى للمسلمين، وما زلت أذكر الضيق النفسي الذي سبَّبَتْه لي هذه "الهزيمة"، بالرغم من كونها مسوّغةً بالخطأ البشري وعصيان أمر الرسول ﷺ، لكن الدرس كان ينبغي أن يُقدَّم لنا كاملًا، فانقلاب حال الصحابة السريع من العصيان والهروب، إلى التحامل على الجراح واللحاق بالعدوّ المزهوّ بنفسه، وعدم الالتفات لشائعات المثبّطين، هو لعمري أعظم درس يمكن أن نقتبسه من كل هذه القصة.

الصحابة بشر مثلنا، قد يضعف بعضهم أمام شهوة الغنيمة، ويتساءلون عن سبب الهزيمة، إلا أنهم سرعان ما يندمون ويتوبون ويفهمون الدرس وينتقلون من حال إلى حال، لا سيّما عندما كانوا حديثي عهد بإيمان.

اقرأ معي الآن هذه الآية التي جاءت بها السورة الكريمة بعد انتقالها من قصة أُحُد إلى مناقشة أهل الكتاب: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، ولاحظ أن الوعد بالابتلاء جاء بصيغة التأكيد المشدّدة، فهي أمر محقّق، ورسالة نافذة إلينا عبر القرون كي نعيَ الدرس ونستعدّ، فبأسُ العدو شديد، ونحن مُطالَبون بالأخذ بالعزيمة.

(ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة)[(١)].

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٠)، وقال: حديث حسن.



# الأنعام.. حوارٌ يعرّي عقليّة الجحود وسرّ استعباد البشر

لعلّ أول ما يتبادَر إلى ذهن قارئ يكتشف المصحف لأول مرة أن سورة الأنعام ستتحدّث عن أحكام الذبائح، وعن زكاة الإبل والبقر والضأن والمعز، لا سيما إذا كان يقرأ ترجمةً لمعاني القرآن الكريم باللغات الأجنبية، فبعض الترجمات الإنجليزية -مثلًا- تترجم اسم السورة إلى Livestock، التي تعني الماشية أو الدوابّ. لكن السورة لم تتعرض للذبائح إلا في الآية الثامنة عشرة بعد المئة، وما بعدها، أي في ثلث السورة الأخير.

سورة الأنعام مكّيّةٌ، عدا بعض الآيات المدنية المتفرّقة، وهي سورة من السبع الطوال. وبما أنها نزلت في مكّة فلا بدّ أن يتركّز محورها على تصحيح العقيدة والإيمان، وليس على الأحكام الشرعيّة، لذا جاءت الآيات المتعلّقة بالأنعام لنسف المفاهيم الوثنيّة الجاهليّة في التعامل مع الذبائح، إلا أنّها قدّمت بين يدي هذا التصحيح العقديّ حوارات مطوّلة، تهدف بمجموعها إلى كشف تهافت الأساس الذي أقيمت عليه تشريعات الذبح الجاهلية، فلا يصل القارئ إلى اكتشافها إلا بعدما يتبيّن له ضعف العقول التي آمنت بها، وعملت بمقتضاها.

هذا البيان الذي تسلّل إلى اللاوعي أثناء تدبّري في سياق الحوار القرآني، دفعني للإحساس بأن "عقليّة القطيع" هي التي ستطفو على سطح الوعي في نهاية المطاف، وكأني أمام مشهد نقديٍّ لعقليّات مغيبة، وتحت عنوان عام بالغ الدلالة: "الأنعام".

بحثتُ في السورة عن تكرار ألفاظ القول، فوجدتُ فعل الأمر "قُل" يتكرّر ٤٤ مرة، وهو عدد لافِتٌ للنظر، فقد يرِد هذا الأمر في آية واحدة من هذه السورة أربع مرات، مع أن الفعل نفسه لم يتكرّر في سورة الأعراف التالية -وهي أطول من "الأنعام"- إلا إحدى عشرةَ مرّة.

أما كلمة "قالوا" فوَرَدَتْ في هذه السورة ثلاث عشرة مرّة، معظمها في سياقِ سردِ مقولات المشركين، قبل بيان تهافتها.

## استطلاع الرسالة

لنبدأ رحلة الاكتشاف من مطلعها، فالسورة تستفتح بحمد الله وتعظيمه، وتثنّي بتقريع من يُشرِك به: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، والمراد بالكلمة الأخيرة الشرك بالله، لندرك من البداية أن السورة ستُطلعنا على عجائب المشركين.

وبدءًا من الآية الرابعة، تنهمر تلك العجائب في سرد يبعث على الدهشة، فنفهم من بَدء المحاججة أن صفتهم الأولى هي الجحود والإعراض: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الأنعام: ٤]، ثم يأتي البيان بوضوح منقطع النظير: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧]، وليس بعده من بيان، فحتى المذاهب الماديّة المجحفة في عصرنا الحديث قد نستبعد أن تجادل في قرطاس يلمسه الجاحد بيده، لكن استغراق المشركين في التعاطي مع السحر قد يُفضي بهم فعلًا إلى هذا النوع من السفسطة.

ثم تبدأ السورة بسرد أقوالهم في الآية التالية، لنطّلع على ما خلده لنا القرآن من حوارات السفسطة في مهد الرسالة: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞ﴾ [الأنعام: ٨]، ولا يُسبق الردّ هنا بكلمة "قُل" كما سيأتي لاحقًا، فليس في اشتراط الجاحد على ربه ما يستحق القول، بل هو من نوع الصواعق المُرسَلة الدالّة على مقام الجلالة: ﴿وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٨-٩]، أي لو تحقّق طلبهم بنزول المَلَك، سواء كان بديلًا عن ابتعاث نبيٍّ من البشر أو مؤازرًا له، فلن يُمهلهم الله بعدها وسيعجّل عليهم بالهلاك إن أصروا على الجحود، وسينزِل الملَك عليهم بصورة آدميّة تصلح للرؤية والتعامل والمعايشة، فلا يزول اللبس ولا ينتهي الإشكال، ولا يزيدهم هذا الاشتراط إلا لبسًا.

وأمام هذه المعاندة، تضعُ المقدمةُ الحوارَ في مساره الحقيقيّ، فنحن لسنا أمام مناظرة فكريّة مع فلاسفة يلتزمون قواعد المنطق، بل نراجع سنّة درجت عليها عقليّات الجحود منذ قرون: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]. إنّها السخرية إذن، ولكل مقام مقال.

هنا تتوالى أوامر الردّ مشفوعة بأمر "قل": ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ ...﴾، ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ؟...﴾، ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا... قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَ﴾، ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾، ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩].

سلسلة متتالية من أوامر القول، تختتم بشهادة الله نفسه جل وعلا: "قل الله شهيد بيني وبينكم"، ثم تسرد بعض أقوالهم المتهافتة مرة أخرى، ولن أقف عندها كي أترك للقارئ مهمّة اكتشافها بنفسه في المصحف، وسأقفز مباشرة إلى أعظم ما تُختتم به مقولات الجاحدين، وأقف مع القارئ وقفة إجلال أمام مواساة رب العباد جلّ وعلا لرسوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، ففي هذه الكلمات الخالدة مواساةٌ لكل داعية ومبلّغ، لا سيّما إذا علم أن النبيّ المعصوم نفسه ﷺ كان يتأذّى من تكذيبهم له، فتأتيه هذه السلوى من العالِم بما تُكنّ صدور الجاحدين.

وهذا ديدنهم في كل العصور: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤]، فهم ليسوا باحثين عن الحق ولا طالبين لحجّة، بل مستعدّون للمجادلة في أيّ برهان أو آية يأتيهم بها: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥].

ولن تجد تشبيهًا لهذا الصنف من البشر أبلغ من هذا: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦]، فهناك صنف يستجيب لأنه يسمع، وصنف آخر كالموتى، لا جدوى من مناقشته.

وهكذا يعود الحوار إلى المطالب التعجيزيّة من قوم أتقنوا السخرية: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧]، والردّ هذه المرة سيسحب الحوار إلى الساحة اللائقة، فبعد أن ينفي العلم عن هذه العقليّات: "لا يعلمون"، ينتقل مباشرة للحديث عن الدوابّ، وكأنّ

العقل يعتذر عن المرافعة بحججه هنا: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

الآية السابقة ليست مبتوتة عن السياق، فمع أنها تكشف لنا عن سرٍّ عظيم من أسرار التنوّع الحيوانيّ، وهو ما يدركه اليوم الباحثون في سلوك الحيوانات من تفاوت في شخصيّات أفرادِها كما يتفاوت البشر، إلا أنّها متبوعة ببيان صاعق: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [٣٩]. ألا ترى هنا وجه الشبه؟ فالمكذّبون بالآيات البيّنات يتمتّعون فعلًا بالحواسّ، لكن الجحود يضعهم في زمرة الصمّ البكم الذين يتخبّطون في الظلمات، ولا نكاد نعلم صورة نشبّه بها هذا الصنف من البشر سوى الدوابّ!

السورة تنفي الملائكيّة عن الرسل، وتثبت آدميّتهم الموافقة لآدميّة من أُرسلوا إليهم: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الأنعام: ٤٨]، ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وكأنّ هذه المبادئ لا تتطلّب الكثير من التفكير لإدراك وجاهتها، أمّا من يُجادِلُ فيها فهو من يستحقّ التشبيه السابق، ويكاد يَفقِدُ جدوى الحواسّ مرّة أخرى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

وبعد آيات متتاليات حافلة بالرد والتقريع، تبرز قصة النبي إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فنقرؤها في سياق ملائم لتبكيت المشركين الوثنيّين، وهو مباين لسياقات سور أخرى وردت فيها قصصه عليه السلام بما يلائم مخاطبة أهل الكتاب. فنقرأ هنا إنكاره لشرك أبيه آزر: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ

وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: ٧٤]، ثم الحوار المشهور الذي ينتهي بإسقاط الألوهيّة عن الشمس والقمر وكافّة أجرام السماء.

لا تطيل الآياتُ في مناقشة السفسطائيّين مرة أخرى، وتكتفي ببيانِ الهوّة السحيقة بين منطق الاهتداء للبدهيّات وبين عبادة النجوم والكواكب: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ﴾ [الأنعام: ٨٠]، وتختم: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾ [الأنعام: ٨٣].

## سرّ تقديس الجمادات

لم يكن الحديث عن انعدام المنطق هو الأمر الوحيد الذي استوقفني في هذا السرد الرائع، ولا حتى اكتشاف المشتَرَكات بين عبدة الأصنام والكواكب وبين الدوابّ، فمن المُتَوقَّع أن يتبادر إلى الذهن تساؤل عن سبب هذا الإسفاف في الجهل، فما الذي يدفع شعبًا من الشعوب، وعلى رأسه نُخَبه نفسها، إلى الاعتقاد بأن الجمادات تتمتّع بصفات خارقة تزيد على ما يتمتّع به الإنسان من الوعي والحواسّ والقدرة، فضلًا عن أن يقدّسها ويعبدها؟

كانت أول ومضة لاكتشاف الجواب قد لمعت أمام عيني في الآية المئة: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠]. والقرآن كالعادة يُجمل في كلمات معدودات خلاصةً قد يفني الباحثون أعمارهم في طلبها، إذ تشير هذه الآية العظيمة إلى أنّ المشركين أشركوا مع الله الجنّ في العبادة، مع أنّه خالقهم، ثم تخبرنا أنهم نسبوا له آلهة من ذكور وإناث. وبعبارة أخرى، هم لم يعبدوا الأصنام فقط، هُبل واللات

والعزى وغيرها، بل عبدوا شياطين الجنّ بافتراض اشتراكهم مع الله تعالى في الألوهية، ثم اعتقدوا وجود آلهة أقل شأنا من "أولاده وبناته" جل شأنه.

ويقول القرطبي في تفسيره إن الآية نزلت في مشركي العرب، كما ينقل عن الكلبيّ أنها نزلت في الزنادقة، وهي صفة كانت تطلق على الزرادشتيّين (المجوس) وغيرهم من أتباع الديانات الباطنيّة الشرقية، ممن قالوا -كما في تفسير القرطبي- "إن الله وإبليس أخوان، فالله خالق الناس والدواب، وإبليس خالق الجان والسباع والعقارب. ويقرُب من هذا قول المجوس، فإنهم قالوا: للعالم صانعان: إله قديم، والثاني شيطان حادث من فكرة الإله القديم"[1].

والباحث في تاريخ الأديان يعلم أن هذه الوثنيّة الثنويّة (الاثنينيّة) درجت في معتقدات شركيّة عدة، وكانت تزعم وجود إلهين ندّين، تتطابق صفاتهما مع صفات الإله التوراتيّ وإبليس نفسه، كما يقول الكلبي بوضوح.

ولو لم يكن في الإسهاب خروج عن موضوع الكتاب، لذكرتُ أمثلة كثيرة جدًّا للكائنات الأسطوريّة التي عبدها الوثنيّون في شتى الحضارات وعلى امتداد قارّات المعمورة، إذ كانت تتشابه كثيرًا في صفاتها التي تجمع أحيانًا بين صفات الحيوانات والبشر، وتتجلى أحيانًا أخرى في هيئة الوحوش والغيلان، أو حتى في صور الحسناوات الفاتنات. وكان الجَهَلة يرفعون بعضها إلى مصافّ الآلهة الكبرى، بينما يجعلون بعضًا آخر في مراتب دنيا، وجميعها كان مستحقًّا عندهم للعبادة وتقديم القرابين، ونحن نرى فيها كلها صورًا تتطابق تمامًا مع صفات الجن[2].

---

(١) تفسير القرطبي، ج٤، ص ٣٦.

(٢) فصّلت القول في هذا الأمر في فصل "الخوف من الشيطان" من كتابي "مستقبل الخوف"، دار مكتبة الأسرة العربية، إسطنبول.

أما "البنين والبنات" ممن نسبهم المشركون إلى الله جلّ وعلا، فهم إمّا المسيح وعُزير وغيرهما من الذكور، أو الملائكة ممّن اعتقد المشركون أنهم بنات. وقد ذكر القرآن ذلك في موضع آخر: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩].

ونحن نعلَم أيضًا أن بعض صور الآلهة وأنصاف الآلهة المؤنّثة التي عُبدت في حضارات شتى كانت تشبه المتداوَل عن صفات الملائكة، كما زرع محرّفو التوراة في العقول فكرة "الملائكة الساقطة" باعتبار إبليس وجنوده جنسًا من الملائكة، إذ لا يعتقد اليهود والنصارى الذين حُرّفت كتبهم بوجود جنس الجنّ أصلًا.

ونحن المسلمون نعلم أنّ الملائكة والجنّ جنسان مغايران، فالأول مخلوق من نور وهو غير مُكلَّف، بل مجبولٌ على الطاعة، والثاني مخلوق من نار ومكلّف مثل بني آدم.

وفي سورة سَبَأ، يقول تعالى عما سيحدث في يوم الحساب: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١]، فحتى الذين كانوا يعتقدون أنهم يعبدون الملائكة سيجدونها تتبرّأ منهم في الآخرة، وسيعلمون أنهم كانوا يعبدون شياطين الجن الذين ضلّلوهم وأقنعوهم بأنهم ملائكة وآلهة.

لنتابع التدبّر في سورة الأنعام، قبل أن ننظر لمجمل الآيات بنظرة أشمل، فنقرأ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢]، ويا لها من معلومة صادمة، فشياطين الإنس والجن -الذين درجوا على معاداة كل نبي- يوحي

بعضهم إلى بعض بالكفر، وبما يحارِبون به الأنبياء من زخرف القول، أي أنّ الأمر لا يقتصر على وسوسة يلقيها الجن في قلوب حلفائهم من الإنس، بل هناك تبادل بين الطرفين عندما "يوحي بعضهم إلى بعض"، وهذا ما نصّ عليه المفسرون في كتبهم.

وبعد بضع آيات، يبدأ الحديث عن الذبائح مبتدئًا باشتراط ذكر اسم الله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنعام: ١١٨]، وبعدها بثلاث آيات أمرٌ جازم أكثر تفصيلًا: ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٢١]، ومع أنّ التفاسير نقلت روايات ترجّح أن الشياطين هنا هم شياطين الإنس من المجوس وأهل الكتاب الذين أوصوا أولياءهم من مشركي قريش، لكنّ الأرجح فيما يبدو لي هو الروايات الأخرى -ومنها المنقولة عن ابن عبّاس رضي الله عنه- التي تقول هم شياطين الجن، الذين يوحون لأوليائهم من قريش ما يحتجّون به لمجادلة النبي ﷺ في أحكام الذبائح، فكانوا يقولون "ما قتل الله لم تأكلوه وما قتلتموه أكلتموه".

والبيان لا يقف عند هذا الحدّ، فإذا واصلنا القراءة ستحملنا الآيات إلى المشهد الختاميّ الذي تنكشف فيه الحُجب، ويخرج الجن من عالم الغيب إلى الشهادة، ويُحشَر الجميع على صعيد واحدٍ لتلقّي الحساب العلنيّ: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعًا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾ [الأنعام: ١٢٨]. فالآية لا تكتفي بإيجاز الحكم النهائي: "النار مثواكم"، بل تكشف لنا بجلاء تهمة شياطين الجن: "استكثرتم من الإنس"، أي

أضللتم الكثير منهم، فيعترف أولياؤهم الإنس بجُرمهم: "استمتع بعضنا ببعض"، أي كان هناك تبادل للمنافع، وكان الجن يستمتعون بالتسلّط على الإنس، وحتى استعبادهم.

## شعائر الذبح

الآن، وبعد هذا البيان الجليّ لعلاقة شياطين الجن بأوليائهم من الإنس، وعدم اقتصار خطر الجن على الوسوسة، نصل إلى أوّل ذكر للأنعام في هذه السورة الجليلة، فنقرأ: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦]، أي كان المشركون العرب يَقسمون ما لديهم من محاصيل زراعيّة وذبائح، فيجعلون قِسمًا لله ويقدّمونه للضيوف والمساكين، والقسم الآخر يقدّمونه قرابين للأصنام، وربما لسَدَنَتِها (حرّاس المعابد).

ولا يقتصِرُ الأمر على الشرك في الذبح والتوزيع، بل اعتمد المشركون تشريعًا خاصًّا لتحريم بعض الأنعام على أنفسهم، أو على نسائهم فقط، أو إباحتها لمن يشاؤون دون غيرهم: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٣٨-١٣٩].

وهنا أعودُ إلى السؤال الذي قدّمتُه سابقًا: لماذا اعتَقَدَتْ حشود من البشر على مرّ القرون وفي أنحاء العالم أن بعض الحجارة تستحقّ التقديس وتقديم القرابين؟

وبعبارة أخرى: إذا كانوا قد اختاروا الكفر والتمرّد على التكاليف التي شرعها الله، فلماذا ألزموا أنفسهم بعبادة آلهة بديلة، وقد كان بإمكانهم الانفلات من أعباء العبادة كلها؟

وأضيف إليها سؤالًا ناشئًا عن الآيات التي قرأناها للتو: لماذا صعّب هؤلاء الناس على أنفسهم أحكام الذبائح، فضيّقوا ما كان واسعًا، وحرّموا ما كان بإمكانهم إباحته؟!

الجواب مُتَضمَّن فيما مرّ بنا، فإبليس صدَق وعده وهو كذوب: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٦٢]، كما صدقت نبوءته: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]، وشياطين الجنّ قاموا بالمهمّة واستمتعوا بها، ليس حسدًا لبني آدم فقط، بل تمتعا بلعب دور الألوهية المزيفة جزئيًّا أو كليًّا.

وفي برهان إضافي على الدور الشيطاني لاستعباد بني آدم، نقرأ أيضا آية توسّطت آيات الأنعام السابقة: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧]، فالحديث هنا عن شياطين زيّنوا لكثير من المشركين ارتكاب جريمة تتعارض جذريًّا مع الفطرة السليمة ولا تستسيغها حتى الوحوش، وهي قتل أولادهم، سواء خشية الفقر، أو وَأْدًا للبنات تحديدًا، أو حتى تقديم الأطفال قرابين للآلهة كما في بعض الحضارات ببلاد الشام وأمريكا اللاتينية. وما كانت هذه الجرائم المرعبة لتصبح مألوفة على نطاق واسع لولا التدخّل الخارجي الذي يزيّنها للإنسان، فيسوّغها بالحاجة تارة، وبغسل العار تارة، وبإرضاء الآلهة أو اتّقاء شرّها تارة أخرى.

وانظر معي إلى حجم الخسارة لمن يسلّم عقله للشياطين سَفَهًا وجهلًا: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

وبعد هذا كلّه، يبيّن الله تعالى لنا أن طريق الهداية ليس محفوفًا بهذا السَفَه، ولا يتطلّب التضحية بفلذات الأكباد، ولا تشوبه الجرائم والخبائث، ولا تنقصه متعة الطيّبات: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤١].

ثم يثنّي بالتذكير بنعمة الأنعام: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾، ويتم الآية بأعظم وصيّة: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ١٤٢].

وكي لا يبقى في نفس المتشكّك أي لبس، يأتي النداء لبيان الفارق بين سُبُل الحقّ وسُبُل الشياطين: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، ولشدة جلاء الحقّ واتّساقه مع الفطرة، خُتِم الجزء الأول من النداء بمخاطبة العقل: "لعلكم تعقلون"، ففيه الكفاية.

ويتابع: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ

ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢، ١٥٣]. وكان ابن عبّاس يقول: "هذه الآيات، هنَّ الآيات المحكمات".

وفي الختام، تفضي السورة الكريمة إلى مفاصلة بيّنة: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١-١٦٣]، فالحُجّة أقيمت، ولم يبق سوى التمسّك بسبيل الحقّ، وإعلان الإسلام دستورًا، شاملًا الصلاة والنُسك، وكل ما في هذه الحياة، وصولًا للممات.



# الأعراف.. إبليس يتوعّد ويخطّط قبل أن تبدأ الحكاية

بعدما أتممتُ اكتشاف التسلسل الماتع للحوار في سورة الأنعام، وما تلاه من تعرُّف على الدور الشيطاني في لعبة التضليل، لاح لي تواصل انتظام الجواهر القرآنيّة في سورة الأعراف التي تحلّ بعدها في ترتيب المصحف، فما كادت الصفحة الأولى تنتهي حتى وجدت في آخرها استهلالًا جديدًا لقصّة آدم وحوّاء مع إبليس، وبدا أنها ستُروى من زاوية مغايرة للتي عرفتُها من قبل في سورة البقرة.

فبعدما تذكّرُنا سورة الأعراف برفض إبليس للأمر الإلهي بالسجود لآدم، متذرّعًا بأنه "خير منه"، نرى في هذه السورة صدور الأمر بطرد إبليس قبل أن يبدأ امتحان آدم: ﴿ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣]، كما نرى في هذه المرحلة المبكّرة من القصّة طلب إبليس بأن يُمدّ له في عمره إلى يوم البعث: ﴿ قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ [الأعراف: ١٤]، ثم إعلانه عن خطّته: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

اللافت هنا أنّ إبليس يتحدّث عن إنظاره إلى يوم البعث، ويتوعّد بالتربّص لآدم وذرّيّته، مع أنّ آدم عليه السلام لم يكن قد كُلِّفَ بشيءٍ بعد، فضلًا عن أن ينسى ويخطئ، ولم تبدأ ذرّيته بالظهور.

ألا يذكّرك عزيزي القارئ هذا الترتيب للأحداث بشيء؟ ففي الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (احتجَّ آدمُ وموسى، فقال له موسى: أنت أبونا خيّبتنا، أخرجتنا ونفسك من الجنة، فقال له آدم: أتلومني على شيء قد كتبه الله علي قبل أن يخلقني؟ فقال النبي ﷺ: فحجّ آدم موسى، فحجّ آدم موسى) [متفق عليه واللفظ للبخاري].

أي أن إبليس حصل على الوعد بالإمهال، وحتى التمكين بالوسوسة والكيد وتضليل بني آدم، منذ البداية، فبعد الآيات السابقة نقرأ: ﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٩]، ثم بعد الوسوسة واستغفار آدم وحوّاء من "تذوّق الشجرة": ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأعراف: ٢٤]، فالأمر بالهبوط الجماعي لآدم وحوّاء وإبليس جاء لاحقًا، ومشفوعًا ببيان كونه هبوطًا مؤقّتًا، وأنّ كل ما عرفه بنو آدم من حضارة وفتن وحروب وسعادة وشقاء ليس سوى لحظات عابرة توشك أن تزول.

ومع أن الابتلاء مفروض بالتساوي على الإنس والجن، سنقرأ الآن خطابًا موجّهًا من الله جلّ وعلا إلى بني آدم حصرًا: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦، ٢٧]. والمعنى واضح لا يحتاج تفسيرًا، فبداية فتنة إبليس كانت بنزع اللباس عن جسدَي آدم وحوّاء، وأول رد فعل لهما كان بالمسارعة لستر

العورات بأوراق الجنّة، وكأنه فعل فطريٌّ لا يتطلّب تشريعًا ولا تربية. وبما أن الفتنة مستمرّة، ويرانا إبليس وجنوده من حيث لا نراهم، وسيصبح لديهم أولياء من جنسنا نحن الآدميين، فالخطْب جَلَل، وأجراس التحذير والتذكير يجب أن تُقرع دائمًا.

وفي آية أخرى يتّضح تمايز بني آدم إلى فريقين: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠]، فماذا يقول أولياء الشيطان، والذين لا يعترفون بوجود الخطأ أصلًا و"يحسبون أنهم مهتدون"؟ إليك الجواب: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨]، قال المفسّرون: كان بعض العرب يطوفون بالبيت (الكعبة) عراة في الجاهليّة، فإذا قيل: لم تفعلون ذلك؟ قالوا: وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها.

فالفتنة هنا أُلبِست لبوس الدين نفسه، ومقولة الشيطان جُعلت أمرًا إلهيًّا، ويحسبون حقًّا أنهم مهتدون!

وهذا كان ديدن الوثنيّات كلّها، فالفواحش توضَعُ في إطار دينيّ، وعندما يُبعَث الرسل إلى أقوامهم لتصحيح المفاهيم يُنبَذون ويُحارَبون. لكن الفطرة تبقى كامنة في الأعماق، ولا تَعْدَم أتباعًا في كل عصر، والرد الإلهيّ لا يتطلب أكثر من التذكير: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۞ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨، ٢٩].

وطريق الفطرة لا يعني الحرمان من متطلّبات الغريزة والاستمتاع بها: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ۞ قُلْ مَنْ

حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣١، ٣٢]، فإذا كانت الفواحش خاصّة بأولياء الشيطان في الدنيا، فإن زينة الله والطيّبات من الرزق متاحة للمؤمنين في الدنيا، وخالصة لهم وحدهم في الجنة، عندما يكون الفريق الآخر يستغيث في جهنم.

## من حرَّم الحلال؟

وعند التدبّر في السؤال: "قل من حرّم زينة الله؟" فستجد أنه لا يقتصر على الاستنكار لبيان الإباحة، بل يحمل في طيّاته إشارة إلى وجود تحريم فعليٍّ لبعض الزينة والطيّبات، فأولياء الشيطان لم يبيحوا لأنفسهم كل المحرّمات لإشباع غرائزهم فحسب، بل حرّموا على أنفسهم بعض المباحات أيضًا، وهذا يعيدنا إلى التساؤُل السابق في تدبّرنا لسورة الأنعام: لماذا يحرّم الكافر على نفسه شيئًا لم يكن محرّمًا أصلا؟

والجواب هو ذاته الذي انتهينا إليه سابقًا، فالشيطان هو الذي يتلاعب بأوليائه، فيقدم لهم تشريعًا جديدًا، فيه الكثير من إباحة المحرّمات، وبعض التقييد للمباحات.

وفي الآخرة يُرمى شياطين الجنّ والإنس وأولياؤهم في جهنّم جميعًا: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]، وعندما يحتجُّ الفريق الذي كان ضحيّة للتضليل، ويطالِب بزيادة العذاب على من كان سببًا في ضلاله، يأتي الجواب: "لكلٍّ ضِعف ولكن لا تعلمون".

وإمعانًا في الإذلال، يأتي الجواب أيضًا من زعماء الفتنة، من إبليس وجنوده، ومن شياطين الإنس: ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٩]، فبعد كل تلك المتعة التي جنوها باستعباد الأتباع والتسلّط عليهم، هاهم يردّون عليهم ببساطة: "ما كان لكم علينا من فضل"، وبعبارة أخرى: لم نجبركم على اتباعنا، ولكنكم أنتم ضللتم بجهلكم وضعفكم، فذوقوا العذاب المضاعَف مثلنا. تخيّل فقط أن يدور هذا الحوار داخل جهنم، والعذاب يأتيهم جميعًا من كلّ مكان والعياذ بالله!

## حبل النجاة

في المقابل، لا يكتفي الفريق الثاني بالتنعّم في الجنة، والنجاة من العذاب، بل يجتمعون على المحبّة والتفاهم، حتى لو كانت صدورهم ملأى بالبغض في حياتهم السابقة: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وبعدما تستعرض السورة الكريمة قصص بعض الأنبياء ومواقف الجاحدين، تختتم بتحذير آخر من الشيطان: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، فتبيّن لنا العلاج الأمثل لاتّقاء شره، وهو الاستعاذة بالله منه، إذ لا تكفي المجاهدة في حرب مستعرة مدى الحياة.

يقول ابن الجوزي في كتابه الرائع "تلبيس إبليس"، إن بعض السلف قال لتلميذه: ما تصنع بالشيطان إذا سَوَّلَ لك الخطايا؟ قال: أجاهده، قال: فإن عاد؟ قال: أجاهده، قال: فإن عاد؟ قال: أجاهده، فقال الشيخ: هذا يطول، أرأيت إن مررت بغنم فنبحك كلبها أو منعك من العبور فماذا تصنع؟ قال: أكابده وأردّه جهدي. قال

الشيخ: هذا يطول عليك، ولكن استعن بصاحب الغنم يَكُفُّه عنك، أي استعذ بالله واستعن به.

وهذه سنّة المتّقين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، فما إن يتذكّر أحدهم ويستعِذْ بالله حتى يعيد الله له بصيرته ويدفع عنه شرّ الشيطان، لا سيّما وأن الكيد لا يقتصر كما قلنا على الوسوسة، بل هو تحالف بين إبليس وأعوانه من الجن وبين شياطين الإنس: ﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ﴾.

## العصر الحديث

وقد يثار هنا سؤال: إذا كان الشياطين يقدّمون لضحاياهم تشريعات جديدة في العصور الوثنيّة القديمة، فماذا عن اليوم؟ أليس الشائع الآن هو اللّادينيّة والإلحاد؟ فليست هناك أي تشريعات وثنيّة تبيح وتحرّم، بل لكل آدميّ في عصر الثقافة "الفردانيّة" تشريعه الخاص.

أقول: نعم، فنحن نعيش في العصر الذهبي للّادينيّة والإلحاد، لكن هذا لا يعني التحرّر من الشرائع، فلو اعتبرنا دول أوروبّا الغربيّة هي بؤرة هذا التوجّه، فهي تدار في الوقت نفسه من تحالفات سياسيّة ورأسماليّة تفرض على شعوبها جملة من القوانين والأعراف التي تهيمن على أفكارهم وسلوكهم، أكثر ممّا كانت الأديان تفرضه على الشعوب في الدول الثيوقراطيّة التي حكمتها تحالفات الملوك مع كهنة المعابد.

الأجندة الليبراليّة التي تفرضها آليّات العولمة قسرًا على العالم كله تتبنى اليوم حرفيًّا أجندة إبليس، حيث تُطمَس الفطرة، وتُمسَخ هُويّة الإنسان، وتُفرَض مناهج

التربية الجنسيّة على الأطفال، وتصبح كل أشكال الشذوذ والانحراف هي القاعدة المحميّة بشرائع حقوق الإنسان، والمفروضة بطيف من أشكال القوة الناعمة والخشنة.

نعم، الإلحاد ينفي الإيمان بوجود إبليس وجنوده، لكن هذا النفي يحقّق له أنجع وسيلة لتطبيق وعيده: "لأقعُدنّ لهم صراطك المستقيم"، فمن ينكر وجود شيء غائب عن حواسّه لن يبالي بمقاومة كيده، والنتيجة هي: "ولا تجد أكثرهم شاكرين".



## الأعراف.. كشف العورات أوّل مكائد الشيطان

قـرأت علـى مـدى سـنوات طـوال أشـكالًا مختلفـة مـن حجـج العلمـانيّين والمتأثّرين بهم في سياق الطعن بوجوب ستر العورة، ولا سيّما الطعن في حجاب المرأة، فكَشْفُ ما أمكن من أجساد النساء كان وسيبقى من أعزّ أهداف الشيطان وحزبه. إلا أنّ أكثر تلك الحجج الشيطانيّة سخفًا كنت قد قرأته في سِفْر ضخم مخصّص للمرأة، أفضّل طيّ عنوانه، إذ قال فيه مؤلفه -المُغرِق في الجهالة- إنه من غير المعقول أن يتواضع إله عظيم يستوي على عرشه إلى مستوى تحديد ما يجب على بني آدم أن يلبسوه، ثم انطلق الأحمق من هذه المغالطة ليعبث بنصوص الوحي التي وَضعت بكلمات صريحة حدًّا للعورة، وألزمتْ آدم وبنيه بسترها!

لعل هذه الحجّة الواهية تذكّر أيّ متدبّر للوحي بحماقة المشركين عندما قالوا ما بال العنكبوت والذباب يُذكَران في الكتاب المُنزَل على محمّد ﷺ؟ فجاء الردّ واضحًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦].

ولكن ماذا يفعل ذاك الدّعيّ بالنداء الإلهي: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗا﴾ [الأعراف: ٢٦]؟!

وفي المقابل، هل يمكن لأحمق آخر أن يتّهم الإسلام بقصْر اهتمامه على مواراة السوءة فقط، وقد أكملت الآيةُ الحكمةَ بتفصيل لا يدع له مجالًا للعبث: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾؟ فالحياء في القلب هو المتمِّم للّباس الساتر للجسد، بل هو المتسبّب فيه، فلولاه ما ستر الإنسان عورته.

استوقفتني تلك الآية في سورة الأعراف بعد أن ذكرَت قصة آدم وحواء مع إبليس اللعين، ثم ألفيتُ نفسي أمام نداءٍ إلهيٍّ يشمل أبناء آدم جميعًا: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآ ﴾ [الأعراف: ٢٧]، فستْر العورة لم يكن منذ بدء الخلق أمرًا هامشيًّا، بل كان كشفُها أوّل ما حلّ بجنسنا من مكائد الشيطان، ثم كان الخروج من الجنّة هو العاقبة.

والعجب لا ينتهي عند من اتخذ إلهَه هواه، فنبذَ الوحي وتجاهل حجّيته: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٧]، بل هناك من يسعى للارتقاء في مدارج المفكّرين ثم يأتي على نصوص الوحي فيزعم أنها لم تَفرِض على المرأة الحجاب، وأن لها أن تكشف من عورتها ما يوافق هواه، وربما تذرّع باعتماد العادة والعرف أصلًا للتشريع كي يحقّق ما يريد: ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا ﴾ [الأعراف: ٢٨]، ثم يحسب أنه ما زال عاملًا بما أمر به الله، وكأنه يقول: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، مع أن الأمر بالستر لا لبس فيه: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ ﴾، وما كان لعالِم بالشرع والتأويل واللغة أن يتقوّل مثل هذا الهراء، ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾؟ [الأعراف: ٢٨].

استوقفني بعد ذاك النداءِ أمرُ الله بالعدل: ﴿ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِ ﴾ [الأعراف: ٢٩]، ثم الأمر بالتوحيد والإخلاص: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾، وبيان الفاصل بين فريقين: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ [الأعراف: ٣٠]، لا سيّما وأن أتباع الضلالة ﴿ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٠]، فلم تتلبّسهم الضلالة استحقاقًا إلا بعد أن اختاروا موالاة الشياطين مع زعمهم أنهم على حق!

قد لا تستميل شبهاتُ المرجفين من اتضحت له آيات الله وحدوده، لكنّ بعضًا من أعضاء الفريق الذي اهتدى قد يبقى في قلبه مرض، فنجد من النساء المُهتَدِيات من تظنّ أنّ الحجاب يقتصر على غطاء الرأس واللباس الطويل، وتتساهل في اللبس الضيّق والجذّاب بذريعة أن الله جميلٌ يحبّ الجمال، وهذا أيضًا من تلبيس إبليس!

فبعد الأمر بالعدل والتوحيد، يتجدّد النداء لكل بني آدم محذّرًا من التلبيس بذرائع الجمال والاستمتاع بالنعم، للنفاذ إلى ما هو أسوأ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ﴾ [الأعراف: ٣١]، فاللباس الساتر المطلوب هو زينة بذاته، والإسراف في الملبس إلى حدّ الافتتان يخرج به عن مقصده فيغدو كالتعرّي، والله تعالى لا يرضى بالتجاوز في الحلال الذي يُفضِي بصاحبه إلى الحرام: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

إذن فعندما أمرنا الله بالستر لم يُوجِب علينا الميل إلى القبح، ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ﴾ [الأعراف: ٣٢]، بل جعل اللباس نفسه زينة دون تجاوز، وترك لنا فسحة للتمتُّع بالطيّبات، ثم وعد المؤمنين بالمزيد في الآخرة: ﴿قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وأوضح لنا -جلّ شأنه- أن الحرام ليس في الطيّبات: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، فلا ينبغي أن يَقبل بالحرام مؤمن، ولو لم يرتكبه في سلوكه عمليًّا.

الحدّ القرآني لعورة المرأة لم يكن غامضًا حتى يخرج علينا بعد قرون من يزعم أن حجابها ليس فرضًا، فالنداء الثالث موجَّهٌ أيضًا لكلّ البشريّة: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ [الأعراف: ٣٥]، وكأن الرُسل لم يأتوا بالآيات فقط،

بل شرحوا وبيّنوا أيضًا ما تضمّنته من الأوامر والنواهي، فمن تَجرّأ على تأويلها بما يوافق هواه بدون حجّة فهو مشمول بالوعيد: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٣٧].

ولا عُذر لعامّة الناس ممّن يبحثون في فتاوى المضلِّلين عمّا يوافق هواهم، ولا لأيّ فتاة تخلع حجابها أو تتهاون فيما دونه بذريعة ما يطرحه المضلّلون من حجج واهية، فكل بالغ عاقل مسؤول عن نفسه، ولن يدافع عنه من ضَلَّله، ولنا في المشركين عبرة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ۝ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٧ و٣٨].

أجارنا الله من عذابه، وأدام علينا جميعًا الستر والعافية.



# الأعراف.. مسّ آباءنا السرّاء والضرّاء

تدبّرنا في فصلين سابقين أجزاء من سورة الأعراف، فاكتشفنا في الأول دور إبليس وجنوده في تضليل بني آدم، ورأينا في الثاني حكمة الستر والعفّة والحجاب. وما زالت السورة الكريمة حافلة بالدرر التي أتلهّف لاكتشافها.

في الآية التاسعة والخمسين من السورة، تبدأ قصص بعض الأنبياء الكرام مع أقوامهم، وهي قصص وردت في سور أخرى عديدة، لكن التسلسل هنا سيفضي بنا إلى درس عظيم.

تبدأ السلسلة بأول الأنبياء من أولي العزم، نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٠].

ثم النبي هود عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٥، ٦٦].

ومن بعده قصة صالح عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ..﴾ [الأعراف: ٧٣]، ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥].

ثم نستمع إلى طرف من قصة لوط عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٠- ٨٢].

وأخيرًا، قصة شعيب عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ..﴾ [الأعراف: ٨٥]، ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨].

المشتَرَك في هذه القصص واضح، فكلّ نبيٍّ يبدأ بالدعوة للتوحيد، باستثناء قصة لوط عليه الصلاة والسلام الذي ركّز دعوته على نبذ الفاحشة المستشرية في قومه. أما الردّ فيأتي من الملأ في قومَي نوح وهود، ومن الذين استكبروا في قومَي صالح وشعيب، بينما يأتي الردّ جماعيًّا من القوم كلّهم في قصة لوط، ربما لأن ممارسة الفاحشة فيهم كانت شائعة بين الجميع تقريبًا، أو الإقرار بها والسكوت عنها على الأقل، ويتساوى في ذلك القادة مع العامة.

والمشترَك الآخر في تلك القصص أيضًا هو النهاية المأساويّة، فالله جل شأنه لم يُمهِلهُم لنيل عقابهم في الآخرة، بل عجّل عليهم الاستئصال بعد إقامة الحجّة.

والأهمّ لم يأتِ بعد، فتأمّل معي: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤]، فبعد سردِ قصص الأقوام الخمسة التي أبيدت، والتي جعلها الله عبرة لكل من يأتي بعدها، تخبرنا الآية أن كل قرية يأتيها الخبر من السماء، ثم يكذّب أهلُها رسولَهم، فلا بدّ أن ينالها شيء من

الشـدّة أوّلًا، والعلّـة هـي: "لعلهـم يضّـرعون"، فالإنسـان بطبعـه يميـل إلـى الدَّعـة والجحـود في الرخـاء كمـا يقـول القـرآن في موضـع آخـر: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلـــق: ٦، ٧]، ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟﴾ أي أنـــزل الله عليهم بعد الشدة رخاءً ونعيمًا، ﴿حَتَّىٰ عَفَوا۟﴾ أي تعافوا وكثرت أموالهم وأولادهـم، ﴿وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ أي نظروا في تـاريخ آبائهم وأجدادهم ورأوا أن تنـاوب الشـدة والرخـاء هـو سـنّة الحيـاة، فـلا يخلـو جيـل تقريبًـا مـن مكابـدة هـذه التجربة، واستنتجوا من ذلك أن الشدّة التي أصابتهم سابقًا بعد خـروج نبيّهم وظهـور دعوته لم تكن عقوبةً من الله، بل مجرد "ظاهرة طبيعيـة"، وحينئـذ يستحقون الإبـادة: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٥].

ما زلت أذكر شعور الدهشـة الـذي تملّكنـي عنـد تـدبّري لهـذه الآيـات في المـرة الأولى، وكأني أقرأ في سطرين ما يحسمُ الجدل كلـه. فـلا تكـاد تقـع مصيبة في عصرنا هذا إلا ووجدتُ من يعترض على أي موعظة، ناسبًا كل نكبـة إلـى سـنن الطبيعـة التي يمكن رصدها والتنبّؤ بها، وربما التخفيف من آثارها.

يقـول ربنـا جـل وعـلا في سـورة أخـرى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشـــورى: ٣٠]، فارتبــاط النكبــات والكـــوارث بالمعاصي أمر محسوم، وحتى لو وقع على قوم مؤمنين دون غيرهم فلا يعنـي هـذا - كما يتداعى إلى أذهان المغفّلين- أن الله تعالى قد غضب منهم أكثر ممـن يجـاهرون بالكفر والفواحش، فقد يعجل الله بعقوبة ما (لا تبلغ درجة الاستئصال والإبادة) على قـوم أو جماعـة أو فـرد لينـبّههم فيتوبـوا إليـه، أو ليغسـل عـنهم بعـض ذنـوبهم قبـل أن يحشرهم إليه، وقد يترك الكفار على ما هم عليه بدون عقوبة ولا موعظة إمهالًا وفتنة.

فحكمة الله لا تقاس بمقاييس البشر، ومعاملته لكل جماعة أو فرد من عباده لا تُحسَب بالمعادلات الرياضية.

ولو عدنا إلى سورة الأعراف، فسنجد التحذير واضحًا، ونحن في هذا العصر مشمولون به: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠]، فانتبه عزيزي القارئ للإشارة الصريحة لربط المصيبة بالذنوب: "أصبناهم بذنوبهم"، ثم تأمّل في خطورة الإعراض عن هذا الربط: "ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون"، وهذا ما يحدث تمامًا اليوم.

## عذاب بني إسرائيل

بعدما أصّلَت الآيات السابقة لمفهوم العقوبة واستحقاقها، عبر سرد قصصِ خمسة أقوام عوقبت بالإبادة، تفرد الآيات التالية مساحة أوسع لقصة أكثر تفصيلًا، وهي أكثر مواءمة لنا في اقتباس العبر والدروس، إذ لم يعاقب الله أصحاب هذه القصة بالاستئصال الكامل، كما وعدنا رسولنا ﷺ أيضًا بألّا نلقى هذا المصير، ففي الحديث قال ﷺ: (سألتُ ربي ثلاثًا، فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة: سألت ربي ألّا يهلك أمّتي بالسّنة فأعطانيها، وسألت ربي ألّا يهلك أمّتي بالغرق فأعطانيها، وسألته ألّا يجعل بأسهم بينهم شديدًا فمنعنيها) [صحيح مسلم]، ويقصد بالسنة القحط والجدب.

تبدأ القصة بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٣]، وكأنها تشوّقنا من البداية لاكتشاف عاقبة جديدة.

تُحدّثنا الآيات الكريمات عن حوار موسى عليه الصلاة والسلام مع فرعون، وعن انتقام فرعون من السحرة الذين تبرؤوا منه وفضحوه، ثم تأخذنا الرهبة من صمودهم العجيب أمام تهديد طاغية جبّار بالتعذيب والقتل والصلب: ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

يأتي بعدها موقف الملأ، ليذكّرنا بمواقف الملأ في قصص الأقوام البائدة، إلا أنه هنا يبدو أكثر ملاءمة لعصرنا، فالقصص الخمس السابقة كانت تدور في أقوام أقرب إلى القبائل، أما قصة موسى عليه الصلاة والسلام فحدثت في عاصمة دولة قوية، وكان هذا النبي يواجه ملِكًا على رأس حضارة كبرى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

يطالب موسى عليه الصلاة والسلام قومَه (بني إسرائيل) بالصبر، وكأن في هذه الومضة سلوى لنبيّنا محمد ﷺ عندما أوذي مع صحابته في مكة: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

ثم يحين موعد البأساء والضرّاء، فتحلّ الشدّة بالقوم كما حلّت بالأقوام السابقة: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٠]. وإذا كان السابقون ينظرون إلى ما أصاب آباءهم من السرّاء والضرّاء، واعتبروها سنّة الحياة، فقد كان قوم فرعون أشدّ طغيانًا وجبروتًا: ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَـٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَـٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣١]، أي كانوا ينسبون

الرخاء لأنفسهم ويقولون: هذا لنا بما نستحقّه، وإن أصابهم القحط في موسم آخر تشاءموا وقالوا: هذا بسبب موسى وأتباعه!

تخيّل أن يصدر مثل هذا الفجور بعدما رأوا بأعينهم معجزة العصا واليد، وبعدما شهد السحرة أنفسهم بأنها ليست سحرًا، ثم تأمّل في هذا الإسفاف العجيب: ﴿ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٢]، وهذا يشبه تمامًا ما نسمعه اليوم من إنكار لمعجزة القرآن، فحتى لو شهد جهابذة العلم والتاريخ والقانون واللغة بأنه ليس من كلام البشر، ستجد من الجاحدين من يصرّ على إنكار الوحي بكل صفاقة.

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ لتكتمل بذلك سبعُ آيات (معجزات) تثبت صحة ما جاء به نبيهم، ومع ذلك: ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

ومع أن بعض هذه المعجزات كان يأتي في صورة كارثة طبيعية، كالجراد والقمّل والطوفان، ومن قبلها القحط ونقص الثمرات، لكن المعجزة الأولى كانت أكثر وضوحًا من كل ما جاء بعدها، وهي تحدّي موسى للسحرة، كما كان بعضها عجيبًا وغير مسبوق في تاريخ الأمم، إذ قال بعض المفسرين: إنّ مياه آبارهم وأنهارهم تحوّلت إلى الدم.

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الأعراف: ١٣٤]، أي عندما أشرفوا على الهلاك بدأوا بالمساومة، ليس إيمانًا بالمعجزات البيّنات، بل تسليمًا بالعجز.

واللافت أنهم طلبوا من موسى أن يدعو "ربه" برفع العذاب عنهم، إذ يصعب على الوثنيّين في كل العصور تصوّر وجود إله واحد مهيمن على الوجود كله، وقد سمعتُ مثل هذا الاستنكار من بعض أتباع الوثنيّات الشرقيّة اليوم (البوذيّة والهندوسيّة ومشتقاتهما)، فقوم فرعون اقتنعوا بعدما ذاقوا العذاب بأنّ لموسى عليه السلام ربّ قادر على التضييق عليهم، ومع ذلك ظلّوا مصرّين على عدم اتباعه، اعتقادًا بأن ثمة آلهة أخرى تستحق أن تُعبَد أيضًا، ولكن عندما ثبت عجزُ آلهتهم عن التصدّي لربّ موسى (جل وعلا) بدأوا بتقديم التنازلات: "لنؤمنن لك".

عند هذه النقطة تحديدًا اكتمل قيام الحجة، وانتهت المهلة، فمفاوضاتهم مع موسى عليه الصلاة والسلام تثبت اقتناعهم بأنّ تلك الآيات ليست سحرًا ولا ظواهر طبيعيّة، فدعا لهم موسى، ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٥]، أي فعلوا كما فعل أسلافهم من الأقوام السابقة، ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٦]، وهكذا استحقّوا الاستئصال كما استحقّه الذين من قبلهم، مع أنّ الاستئصال لم يكن للقوم كلّه، بل لفرعون وحاشيته وجنوده الذين لحقوا ببني إسرائيل إلى البحر، ثم استمرّت الحضارة الفرعونيّة في مصر بعد هذه الحادثة، مع أنّ التاريخ المتبقي إلى يومنا هذا لا يخبرنا عمّا حدث بعد ذلك، ممّا يدفع بعض المؤرخين للاعتقاد بأنّ من ورثوا الحكم من فرعون الغريق قد طمسوا هذه القصّة المزرية من تاريخهم المدوَّن.

**كفرٌ بعد النجاة**

لو كنتُ أقرأ هذه القصة للمرّة الأولى، فسيكون أول ما يخطر على بالي أن القصة ستنتهي هنا نهاية سعيدة، كما عوّدتنا الأفلام والروايات، لا سيما بعد قراءة آية البشرى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، لكن فصلًا جديدًا من معاناة موسى عليه السلام يوشك أن يبدأ.

وقبل أن أحدّثك عنه، سألفت نظرك عزيزي القارئ إلى استنباطٍ لطيف من الآية السابقة، وهو أن آثار فرعون الغريق قد دُمّرت، ومنها صرح هامان الذي لم نجد له أثرًا، وقد ورد ذكرُه في موضع آخر من القرآن: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ﴾ [غافر: ٣٦].

أما قوم بني إسرائيل فلم يرثوا مشارق الأرض ومغاربها على الفور، بل كان عليهم اجتياز اختبار الاستحقاق بدورهم كي يتحقّق لهم التمكين في بلاد الشام، إلا أنّهم فشلوا من أول خطوة: ﴿وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، وفي هذا تأكيد آخر على رسوخ مفاهيم الشرك الوثنيّة في العقول، فكما رأى قوم فرعون أن لموسى عليه الصلاة والسلام ربًّا "خاصًّا"، قد يضرّ وينفع ويُدعى ويُعبد، لكن لا يُفرَد بالعبادة وحده، فكذلك كان بنو إسرائيل يفكّرون أيضًا، حتى بعد كل رأوه بأعينهم من العقوبات التي نزلت بقوم فرعون الذين اضطهدوهم،

وبعد أن رأوا البحر ينفلق ليفرّوا من جيش فرعون، ما زالت عقولهم بعد هذا كله تستبعد مفهوم التوحيد، وما زالت نفوسهم تميل إلى تقديس آلهة ملموسة.

تحكي لنا الآيات التالية معاناة موسى عليه الصلاة والسلام مع قومه، والتي قد تماثل أو تزيد عما كابده مع قوم فرعون. وهذا الجزء من القصة هو الأشد قسوة على النفس، فقصص أولي العزم من الرسل تُشعِرنا بالخجل واستصغار ما قد نكابده في مواجهة خصومنا، وفيها من السلوى ما يكفي كل داعية يشعر بالوهن.

لم يكتفِ القوم بطلبهم الأول: "اجعل لنا إلها كما لهم آلهة"، فما إن غادرهم نبيهم ليتلقى الوحي حتى سارعوا لصناعة معبودهم: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌ ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

جاءهم الأمر الإلهي بالتوبة: ﴿ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَا ﴾ أي خرج مع سبعين مِن خيارهم إلى طور سيناء في الوقت المحدد كي يعلنوا التوبة بين يدي الله. وفي هذا الموقف الرهيب الذي تنفطر له القلوب، تجرأ بعضهم وقالوا: "أرنا الله جهرة"، وكأن الشرك قد استبدّ بعقولهم حتى ما عادت تستوعب وجود إله عظيم لا تدركه الأبصار، فعوقبوا على الفور بزلزلة نزعت أرواحهم.

تخيّل معي -عزيزي القارئ- هذا الموقف العصيب، فبعد كل ما لقيه رسول الله موسى عليه السلام من مشقة في مجابهة طغيان فرعون وملئه، وبعد صبره على كفرهم نحو أربعين سنة -كما جاء في الآثار- ثم تحمّله فاجعة اتخاذ بني إسرائيل من حليّهم الذهبيّة وثنًا على هيئة عجل، وبعدما وعدَهم الله بالصفح إذا جاؤوا إلى جبل الطور متضرّعين خاشعين، بعد هذا كله فاجأوا نبيّهم بطلبهم السخيف لرؤية الله، فإذا بهم صرعى بين يديه إذ أخذتهم الرجفة، وهو واقف بينهم يراقب في ذهول وحسرة.

قام عليه السلام يبكي ويتضرّع إلى الله: ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

استجاب الله تعالى دعاء نبيه، وأحيا أولئك الرجال كرامةً له، ونجد تأكيد إحيائهم بعد الموت في سورة أخرى: ﴿فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥، ٥٦]، ثم ابتلاهم الله باختبار جديد: ﴿وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٦١]، والمدهش أنهم فشلوا فيه مرة أخرى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ﴾، فاستحقّوا العقوبة مجدّدًا: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٢]، ونلاحظ ممّا سبق أن المعصية ارتُكِبَت من "الذين ظلموا منهم" وليس من الجميع، وأن العقوبة لم تتضمّن استئصالًا وإبادة، وقد اختلف المفسّرون بين كونها طاعونًا أو ابتلاءً آخر.

**"كونوا قردة خاسئين"**

نتابع القصة ونكتشف المزيد من العجائب، فالقوم يخوضون امتحانًا آخر، ويفشلون مجدّدًا: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣]، قال القرطبي: روي أنها كانت في زمن داود وليست في زمن موسى عليهما السلام، وخلاصة هذا

الامتحان أن الله أمرهم بعدم اصطياد السمك يوم السبت، فلم يلتزموا بهذا التشريع، فعوقبوا بامتحان أشدَّ، فكانت الأسماك تأتيهم بكثرة يوم السبت ثمّ تختفي بقيّة الأسبوع، فما كان منهم إلا التحايل على الأمر الإلهيّ.

قال القرطبيّ: إن إبليس تدخل بنفسه وأوحى إليهم فقال: إنما نُهِيتُم عن أخذها يوم السبت فاتّخذوا الحياض، فكانوا يسوقون الحيتان (الأسماك) إليها يوم الجمعة فتبقى فيها، فلا يمكنها الخروج منها لقلة الماء، فيأخذونها يوم الأحد ويحتالون في صيدها.

قد يتبادر إلى ذهنك -عزيزي القارئ- أن العذاب سينزل بهم كما نزل من قبل، لكن تفصيلًا مُهمًّا حدث قبل ذلك، إذ تقول الآية: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٤]، وقد شرح ابن كثير في تفسيره انقسامهم إلى ثلاث فرق: الأولى ارتكبت المعصية، والثانية نهتهم عن ذلك واعتزلتهم، والثالثة التزمت الحياد.

وتخبرنا الآيات هنا عن حوار مهم يبيّن تبعات هذا التمايز، فالفرقة المحايدة سألت المنكِرة: "لمَ تَعِظُون قومًا الله مهلكهم؟" أي لماذا تتحمّلون عبء وعظهم وأنتم تعلمون أنهم استحقّوا العقوبة من الله؟ فقالوا: "معذرة إلى ربّكم"، أي إنما نعظهم لنُعذر عند الله بقيامنا بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، "ولعلّهم يتقون" أي أنّ الأمل بهدايتهم يظلّ قائمًا، فلا يجوز أن يقنط الداعية من هداية أحد مهما كان ظالمًا.

ثــم يحــين موعــد العقوبــة: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعـــــــراف: ١٦٥]، فينجّي الله الفرقة التي قامت بواجب الـوعظ، ويعاقـب الفرقـة العاصية بعـذاب بئيس ولكـن مـن دون استئصـال، فيواصـلون العنـاد، فيـأتيهم العـذاب الحاسـم، والـذي لا يكتفي بالاستئصال بل يمسخهم ليخرجوا عن جنس البشر إلى غير رجعة: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف: ١٦٦].

وقد يتبقّى في النفس سؤال عن مصير الفرقة الثالثة، ومـن اللطائف أني وجـدت له هذا الجواب: قال ابن عبّاس: ما أدري ما فُعِل بالفرقة الساكتة أنجوا أم هلكوا؟ قال عكرمة: فلم أزل به حتى عرّفته أنهم قد نجـوا، لأنهـم كرهـوا مـا فعلـه أولئـك، فكسـاني حلّـة[1]. أي ظـل عكرمـة يجـادل ابـن عبّـاس حتـى أقنعـه بنجـاتهم فأهـداه عبـاءة ثمينـة مكافأة له.

ثم توسّع الآية التالية مجال العذاب الذي سيلحق بمن كفر من بني إسرائيل إلى يوم القيامة: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، وقد أسهب المفسّرون في ذكر ما تعرّض له بنو إسرائيل من تشريد وتشتيت واسترقاق طوال قرون، وهذا لا يتعارض مع فترة العلوّ في الأرض التي لم تحصل لهم إلّا في عصرنا هذا، مصداقًا للوعد الإلهي في سورة الإسراء: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤]، وهي فترة عابرة لن تدوم.

---

(١) صفوة التفاسير، ج ١، ص ٤٧٩.

وبعد كل ما مرّ به بنو إسرائيل من امتحانات، ومن محطّات نجاح وفشل وعقوبات في عصر الرسالات، لجأت الأجيال اللاحقة لتحريف التوراة والركون إلى الدنيا: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُ﴾.

والعجيب أن التوراة نفسها كانت تتضمّن ميثاقًا بألّا يكذبوا على الله ويحرّفوا كلماته، فارتكبوا ما حذّرتهم التوراة منه: ﴿أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ﴾ [الأعراف: ١٦٩]، وخسروا بذلك مكانتهم بين الأمم.

والآن، تخيّل معي -عزيزي القارئ- غبطة رسولنا محمد ﷺ وهو يتلو هذه القصص بعد سنوات من نزول "الأعراف"، وقد استتبّ له الأمر في المدينة المنورة، وفُتِحت له مكة المكرمة، وبايعته وفود العرب، ومن حوله صحابته الأشاوس، وقد أنبأه الوحي بأن كلمة الإسلام ستعمّ الأرض[١]، وأنّ أمّته أحقّ بحمل الرسالة التي تخلّف عنها بنو إسرائيل.

## ألستُ بربكم؟

لفت نظري أنّ بداية قصة موسى عليه السلام مع فرعون وبني إسرائيل جاءت في منتصف السورة بالضبط، أي في الآية ١٠٣، والسورة مكوّنة من ٢٠٦ آيات. فالحيّز الذي خُصص لسرد تفاصيل القصة واستنباط دروسها يقترب من نصف السورة الكريمة.

(١) روي عن النبي ﷺ قوله: "لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر، إلا أدخله الله كلمة الإسلام". رواه أحمد، وصححه ابن حبان والحاكم والألباني والأرناؤوط.

ومع انتهاء القصة بالتذكير بالعهد الذي أخذه الله على بني إسرائيل، ستجد تذكيرًا آخر بالعهد المأخوذ على بني آدم جميعًا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣].

ثم التفاتةٌ مهمة إلى الدور الشيطاني في استعباد بني آدم، فبعدما أُخذ الله العهد علينا ونحن في عالم الذرّ، وبعدما شهدنا على أنفسنا بأنّ التوحيد هو الفطرة، تأتي قصة صغيرة عن رجل أوتي العلم، فعرف الحقّ واهتدى إليه، ثم اختار لنفسه الكفر بعد الإيمان منسلخًا من العلم الذي يحمله، فاستحوذ عليه الشيطان حتى جعله من شياطين الإنس: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥]، واختلف المفسّرون في الشخصيّة المذكورة، فقيل هو من بني إسرائيل، وقيل من الكنعانيّين الذين تصدوا لموسى عليه السلام، وقيل من قريش.

وأيًّا يكن اسمه وعصره، تأمل معي في مصير هذا العالِم: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا﴾ إذ كان مؤهَّلا للارتقاء في مراتب العلماء الأجلاء، ﴿وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، فَيَالَهُ من تشبيه مُفزِع.

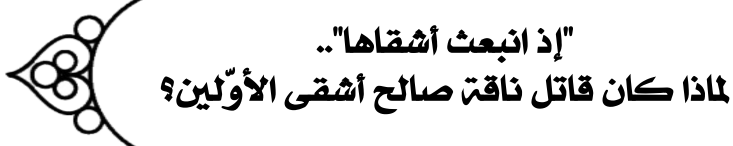
تأمّل أيضًا في التشبيه التالي، إذ يذكّرنا بما مر بنا في سورة الأنعام: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا

﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، فالقلوب طُمِست أولًا، ثمّ أصبحت الحواسّ بلا معنى، فأصبح الغافلون من الجن والإنس كالأنعام، بل هم أضلّ.

وبعد هذه الأمثلة الخاتمة، يمكنني القول الآن إني أدركتُ جانبًا من الحكمة في سرد قصص الأنبياء وصبرهم، وكيف عُجّلت لبعض الأقوام العقوبة، وأيقنت أن الغفلة عن استنباط العِبر من قصص السابقين هي سبب تكرارها في الأجيال المتعاقبة، حتى يأتي الجيل الذي يكرّر: "قد مسّ آباءنا الضرّاء والسرّاء"، فتدور عليهم الدائرة السوء.

يكفي إذن أن نستمع ونُنصِت لنتعلم: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، ثم نقرن العلم بالتزكية والتضرع، خشية التعرّض لمصير العالِم الذي "أخلد إلى الأرض" فصار "كمثل الكلب": ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

وخير خاتمة لهذه الرحلة المعرفية في تاريخ الأمم سجدة تلاوة بين يدي الله، واستحضارٌ لاستغناء الله عن عباده وحاجتهم هم إليه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].




## "إذ انبعث أشقاها"..
## لماذا كان قاتل ناقة صالح أشقى الأوّلين؟

"سأل النبي ﷺ عليّ بن أبي طالب: يا عليّ، مَن أشقى الأوّلين؟ قال: الله ورسوله أعلم، فقال: عاقر الناقة"، وهذا جزء من حديث طويل، جاء من طرق كثيرة عند الطبراني والبزار وأبي يعلى، يصحّ بمجموعها.

أذكر أن والدي طرح عليّ وعلى إخوتي نفس السؤال في حداثة سننا، فعددْنا كل ما خطر على ذاكرتنا من أسماء الطغاة وعتاة المشركين. ولما عجزنا عن الإجابة وسمعنا هذا الحديث النبوي، تساءلتُ على الفور: كيف يكون قاتل الناقة، التي كانت معجزة للنبي صالح عليه السلام، أشقى من فرعون وغيره من الجبابرة؟! وعندما نضجت، بدأت الصورة تتّضح لي، وما زالت تزداد جلاءً مع تدبري للآيات القرآنية والاجتماعية على السواء.

أبدأ رحلتي معك -عزيزي القارئ- من تدبُّر واقعنا الحالي، إذ يكفي أن تشاهد بضعة أفلام وثائقية أو تقرأ بعض الكتب عن طغاة القرن العشرين والذي يليه، لتؤسّس الخلفيّة التي سنبني عليها.

وكي لا نعود بالتاريخ إلى أمثلة لا تحصى، فسنجد في سيرة الطاغية الألماني أدولف هتلر، والإسباني فرانشسكو فرانكو، والسوفييتي جوزيف ستالين، والصيني ماو تسي تونغ، وطاغية كوريا الشمالية كيم إل سونغ، أمثلة مذهلة لتألُّه البشر. كما سنجد في سلالة الطاغية الأخير، المستمرة إلى اليوم، قصصًا تثبت أنّ التألّه ما زال

قائمًا في عصر الحداثة والعولمة وثورة المعلومات والاتصالات، بل لدينا من أمثلة تَجَبُّر الطواغيت في عالمنا العربي ما يكفي لفهم هذا الواقع المزري.

ما أريد تسليط الضوء عليه في هذه الأمثلة هو التطوّر التدريجي لجنون العظمة الذي يُبتلى به الطغاة، وهو كالوحش الذي يغذّيه الملأ من حوله ليستعبدوا به الشعوب. ومَن يشاهد الأفلام الوثائقيّة -التي توثّق بالصوت والصورة تفاصيل هذا التطوّر الجنونيّ وخلفيّاته النفسيّة- سيدرك جيدًا حكمة الفقهاء الذين شدّدوا في منع التقرب من السلاطين وتلقّي الهدايا منهم، خشيةً ممّا يتركه الاتصال بهم من قسوة في القلب وتمهيدٍ لتقديم التنازلات. فما بالك إذن بمن ينشأ في القصور منذ صغره، أو يتهيّأ بنفسه ليكون طاغية، فيجد فجأة كل عوامل القوّة والجبروت قد اجتمعت في يده؟

روي في مسند الإمام أحمد، أن النبي ﷺ قال: (من أتى أبواب السلاطين افتتن، وما ازداد أحد من السلطان قربًا إلا ازداد من الله بُعدًا)[1].

من هذا المنظور، يمكنك أن تدرك عظمة ثواب الحاكم العادل عند الله، حتى عدّه النبي ﷺ على رأس السبعة الذين يُظِلُّهم الله في ظله يوم لا ظلّ إلا ظلّه [متفق عليه]، فما أصعب أن يكون أحدنا قادرًا على أن يقهر خصومه، أو يتجبّر على أصدقائه، فيمتنع خوفًا من الله فقط، فكيف به إذا أصبح ملِكًا له حاشية تمجّده وتعظّمه، ولديه أموال وجيوش ووسائل إعلام تحقّق كل أحلامه وجنونه؟

وحتى في الجانب المقابل، انظر إلى قصص بعض أنصار حقوق الإنسان

---

(١) مسند أحمد (٢/ ٣٧١).

والثوّار المعارضين لسلطات بلادهم، ممن قضوا شطْر أعمارهم في التنديد بالظلم، وربما رزحوا في السجون حينًا من الدهر، فإذا ما تمكّنوا من السلطة يومًا تجدهم ينقلبون إلى طواغيت كالذين كانوا يثورون ضدهم.

إذن ففتنة المال والسلطة تطغى على العقل والنفس، وقد تقلِب الإنسان البسيط إلى جبّار يُهلِك البلاد والعباد، وهذا أمر قد يفهمه كل الناس ويلاحظونه بأنفسهم، أما قاتل الناقة فمع أنه لم يحُز مُلكًا عظيمًا، إلا أنه كان أكثر جرأة ووقاحة من فرعون!

## قصة ثمود

لنعد إلى القرآن الكريم ونقرأ القصة، فقد كانت لثمود حضارة عريقة، وكانوا يستوطنون شمال الجزيرة العربية في حدود القرن الثامن قبل الميلاد، وكان العرب يعرفون موطنهم بعد هلاكهم وبقاء آثارهم المنحوتة في الجبال، فهُم الذين خاطبهم نبيّهم صالحٌ عليه السلام بقوله: ﴿وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩]، وقوله: ﴿وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗا﴾ [الأعراف: ٧٤].

سنجدُ في البداية أن قصّتهم تبدو مألوفة، فالتكبُّر والرفض هو ردّ الفعل الذي يتكرّر في معظم قصص الأنبياء التي ذكرها لنا القرآن، ففي سورة الأعراف نقرأ: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥-٧٦]، وفي سورة هود: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾ [هود: ٦٣]، وفي سورة الشعراء: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ

مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء: ١٥٣-١٥٤]. وفي سورة القمر: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ﴾ [القمر: ٢٣-٢٥].

إلى هنا تبدو قصّتهم مشابهة لبقيّة الأقوام الكافرة، وقد ذكرت السور الكريمة جزءًا من النقاش، وردودَ النبي الكريم صالح عليه السلام، إذ اتّهموه بالسحر والكذب كما فعل غيرهم، ولم يتقبّلوا تميّزه عنهم بالرسالة والنبوة لكونه بشرًا مثلهم، بل كَبُر في عقولهم القاصرة أن يكون أهلًا للاتّباع وهو رجل بمفرده، مع أن هذه العقول لا تستبعد في كل العصور أن يتسلّط عليها ملك فاجر، وأن يقهرها على دين فاسد، بل ويجبرها على عبادته. أما أن يدعوهم رجل صالح منهم، عرفوا صدقه وصفاء سريرته، إلى التجرّد عن الدنيا والشهوات وعبادة الله تعالى فهذا ما لا تطيقه العقول التافهة.

وكالعادة أيضًا، طلب الملأ معجزةً من نبيّهم: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء: ١٥٤]، واتفق المفسرون على أنهم حدّدوا آية بعينها، وكأنه اختبار لنبيّهم، فقالوا له أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة حمراء عشراء فتضعُ ونحن ننظر، وترِد هذا الماء فتشرب وتغدو علينا بمثله لبنًا. ولا شكّ في أنّ طلبًا تعجيزيًّا كهذا لا يصدر إلا عمّن لا تقنعه الأدلة العقليّة المجرّدة، بل يريد أن يُشبع حواسّه بأدلة محسوسة، وهذا طبعُ أصحاب العقول البليدة في كل العصور، لا سيما في أيّامنا هذه التي طغت فيها المادة على كل شيء.

يقول ابن كثير في تفسيره: أخذ عليهم نبي اللّه صالح عليه السلام العهود والمواثيق لئن أجابهم إلى ما سألوا ليؤمنُنّ به وليتبعنّه، فأعطوه ذلك، فقام فصلّى ثم

دعا اللّه عز وجل أن يجيبهم إلى سؤالهم، فانفطرت تلك الصخرة التي أشاروا إليها عن ناقة عشراء على الصفة التي وصفوها، فآمن بعضهم وكفر أكثرهم[1].

## ناقة من صخرة

تخيّل معي هذا المشهد الرهيب، فهم لم يعتادوا كما يبدو على رؤية معجزات سابقة، بل كان نبيّهم يجادلهم بالوحي، وبما يوافق العقل والفطرة، وإذا بهم يرون بأعينهم انشقاق الصخرة وخروج ناقة حيّة من جوفها، وعلى الهيئة التي وصفوها أيضًا، فلا تبقى لهم حجّة بادّعاء كونها خدعة معدّة مسبقًا.

وقعت المعجزة كاملة وأمام الشهود، وأقيمت الحجة على النحو الذي طلبوه، ولم يبق سوى الوفاء بالوعد والتصديق. عندئذ قال لهم النبيّ صالح عليه السلام: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وأيضا: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ [القمر: ٢٨]، وفي سورة أخرى: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥-١٥٦].

قال المفسّرون: إن النبيّ صالح أمرهم بأن يقتسموا الشرب من البئر معها، فهي تشرب يومًا وهم يشربون يومًا، وفي المقابل تعطيهم لبنًا كثيرًا يكفيهم.

وبالمقارنة مع معجزات أخرى ذكرها القرآن الكريم في قصص الأنبياء، قد تبدو الناقة بسيطة للوهلة الأولى، لكن هناك فارقًا دقيقًا يحتاج إلى إنعام النظر، وسأقارنها هنا بمعجزات موسى عليه السلام، على سبيل المثال.

---

(١) ابن كثير، الجزء ٣، ص ٣٧٩.

كانت معجزة اليد والعصا هي أوّل وأعظم معجزات موسى، إلا أنّها حدثت مرة أمام فرعون في قصره، ثمّ تكرّرت مرة أخرى فقط عندما حان موعد التحدّي في مواجهة السَّحَرَةِ، وكانت في مشهد استعراضيّ احتشد له الناس، وأعدّ السحرة له العدّة. وبعد تمامها، عادت يد النبي موسى عليه السلام إلى حالتها الأولى، كما عادت العصا إلى ما كانت عليه.

ثم ظهرت الآيات الأخرى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ [الأعراف: ١٣٣]، وكانت تتوالى على قوم فرعون واحدة بعد الأخرى. ومع أنهم اضطروا أخيرًا إلى الطلب من موسى بأن يرفع عنهم هذا العذاب، ممّا يؤكد إقرارهم بأن ربّه -جلّ وعلا- موجود وقادر، إلا أنّ البعض قد يحاجج بنسبة تلك الشدائد والكوارث إلى الأسباب الطبيعيّة، فضلًا عن الزعم بأن لموسى وبني إسرائيل ربًّا خاصًّا، وأن لقومهم أربابًا أخرى لا ينبغي التخلّي عن عبادتها.

أما آية الناقة فجاءت بناء على الطلب، ووفقًا لشروط التحدّي، فحتى السحرة -إن وُجدوا في قوم ثمود- لا يستطيعون حشر ناقة حيّة في جوف صخرة ثم إخراجها سليمة تسعى، وإن فعلوا فيبعُد أن تأتي بالصفات التي حدّدها القوم مسبقًا، وإن حدث هذا فعلًا -على فرض كونها من الجنّ- فلا يُعقَل أن تبقى بينهم متجسّدة على مدار الساعة، يرونها بأعينهم ويلمسونها بأيديهم ويتناقلون أخبارها، ويتغذّون على لبنها الغزير الذي قيل في الآثار إن بَركته كانت تكفي القوم كله.

إذن فالمعجزة لم تكن مجرّد حدث عابر يتحقّق أمام أعين الحاضرين فقط، بل هي آية عظيمة تحقّقت وفق شروطهم، ثم ظلّت مصدر رزق طيّب لهم، وبقيت حيّة بين ظهرانيهم ليتفاعلوا معها ويتّعظوا بها كل يوم.

ولعلّك عزيزي القارئ تستحضر معي أمثلة من تبجّح بعض الملاحدة في منابر شبكات التواصل اليوم، فمنهم من يطالب حقًّا بمثل هذه المعجزات كي يؤمن، وكأنّ معجزةَ نبيّه محمّدٍ ﷺ الباقية في إعجازها بحفظ الله من غير تبديل ولا تحريف، لا تكفيه، فيصرّ على استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، مُقيّدًا عقله بحدود عالم المادّة المحسوس!

ولو أنّ ملحدًا ماديًّا معاندا رأى بعينه اليوم أي خوارق، كالسحر على يد السحرة، أو الكرامات التي يؤتيها الله لبعض أوليائه، فلا تتوقّع منه سوى نسبتها إلى الشعوذة والخدع، فإن تحقّق منها بنفسه، ثمّ بحث ومحّص فسينسبها إلى فجوات العلم التي لم تُكتَشف بعد. والعجيب أنّك تجد في بعض نظريّات الفيزياء الحديثة ضروبًا من الخيال الذي يعاند البدهيّات العقلية نفسها، في عودة سافرة إلى السفسطة الإغريقيّة[١].

ولو عدنا إلى قوم صالح، فقد كان بوسْعهم مواصلة الجحود والكفر والاستمتاع بلبن الناقة المعجزة من غير إيمانٍ، كما يفعلُ أيّ ملحد معانِدٍ إذا رأى ساحرًا يخرق الفيزياء بسِحْره، لكن الفَجَرة الذين تجاوزوا كل الحدود قرّروا قتل الدليل الحسّيّ نفسه، وكأنّ بقاء الناقة حيّة، وهي تأكل وتشرب وتمشي وتُحلب أمام أعينهم، كان يقضّ مضاجعهم، فعندما يجد المعانِدُ نفسَه في واقع يصطدم مباشرة مع

---

(١) هذا شائع جدا اليوم في نسبة كل ما لا يُفهم من ظواهر -أو تخيلات لم تقع بعد- إلى فيزياء الكم، وستجد هذه السفسطة تحديدًا لدى من يتخذون إنكار وجود الله تعالى موقفا مسبقا، لأنهم ﴿كَرِهُوا ما أَنزلَ الله﴾ [محمد: ٩] قبل أن يبحثوا في حقيقته. وأنصح هنا بمطالعة كتاب "فيزياء المستحيل" لعالم الفيزياء النظرية ميشيو كاكو، الذي اشتهر بطرح نظرية الأوتار الفائقة، فكتابه هذا يحفل بمبررات خيالية لأحلام تتحدى الواقع والعقل تحت مسمى العلم.

هواه، يصبح أمام أحد خيارين: إمّا التسليم لما يقتضيه العقل والإقرار بأن الواقع هو الحق، أو محاولة تغيير هذا الواقع نفسه بأيّ وسيلة ليثبت لنفسه وللناس أنّ هواه هو الحقّ.

تدبّر معي هذه الآيات: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [النمل: ٤٨-٤٩]، ولاحظ أنهم لم يكونوا يكتفون بالإفساد بل هم أيضًا لا يصلحون، فالشر أصيل في هذه النفوس الشقيّة.

يقول ابن كثير: إنّ تسعة طغاة كانوا يغلبون على أمر ثمود، لأنهم كانوا كبراء فيهم ورؤساءهم، وقد تناقل العرب أسماءهم ونعتهم، وكان منهم قاتل الناقة الذي يُعتقد أن اسمه قدار بن سالف، إذ اتفقوا فيما بينهم على قتل الناقة، ثم على قتل النبي صالح نفسه عليه السلام[١].

ولاحِظ أن نبيّهم لم يكتف بالوعظ والتذكير، بل حذّرهم بعدما رأوا الدليل بأعينهم مِن أنَّ مسّ الناقة ستكون له عاقبة وخيمة وعاجلة: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤]، ثم تخيّل بعد ذلك مدى الطغيان الذي بلغه من رأى تلك الآية وسمع ذاك التهديد ثم لن يرتدع، لا سيّما أن صالح عليه السلام كان قد علم بما همّوا به، فأنذرهم عسى أن يجد فيهم عاقلًا يخاف على نفسه من العذاب، وهذا ما أشار إليه الرازي في تفسيره[٢].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص ٣٨١.

(٢) التفسير الكبير، ج ١٧، ص ١٧٨.

وفي سورة أخرى، يقول جل وعلا: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٢- ١٤]، ويبدو لي من تسلسل هذه الآيات أنّ أشقى القوم همّ بالذبح أوّلًا، ثم جاء تحذير النبيّ صالح ثانيًا وهو يذكرهم بأنها ناقة الله، وقد جاءت كلمة الناقة منصوبة على التحذير، قال الزجاج هي بمعنى: "ذروا ناقة الله"[1]، ومع ذلك كذّبوه وعقروها.

## الجحود العجيب

لم يكتفِ الأشقياء بهذا الفجور، ولم يشعروا بأيّ ندم، بل لا نجد في الآيات والآثار ما يدلُّ على شعورهم باقتراف أي جرم، فأيّ درجة بلغوا من البلادة والكبْر؟!

نقل المفسّرون أنّ صالح عليه السلام بكى عندما رأى الناقة قد عُقِرت، وأنذَرَهم بأن العذاب واقع لا محالة، فقال الفجرة وهم يهزؤون به: وما آية ذلك؟ فقال لهم: تصبحون غدًا وجوهكم مصفرّة، ثم تصبحون ووجوهكم محمرّة، ثم تصبحون ووجوهكم مسودّة، ثم يصبّحكم العذاب في اليوم الرابع[2].

وعندما رأوا مصداق الآية على وجوههم يومًا بعد يوم، لم يتوبوا ولم يرتدعوا، وهذا من أعجب ما قرأتُ عن طغيان بني آدم. وكما هرعوا إلى الناقة لقتلها، هربًا من التصادم الصارخ بين الواقع والهوى، قرّروا أخيرًا قتل النبيّ صالح نفسه، وكأن قتل الدليل والرسول سيُخرجهم عن سلطة الله الذي أنزل الدليل وأرسل الرسول، فأيّ شقاء بعد هذا الشقاء؟!

(١) تفسير البغوي، ج ٨، ص ٤٤٠.

(٢) تفسير أبي السعود، ج ٤، ٣٥٠.

هنا اكتملت مهمّة النبيّ وحان وقت نجاته: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍ﴾ [هود: ٦٦]، وحان أيضًا وقت تخليص الأرض من هؤلاء الشياطين: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴾ [الذاريات: ٤٤-٤٥]، فتخيّل معي فظاعة هذا المشهد، وهم يصبحون في اليوم الرابع بعد أن اسودّت وجوههم، ليروا بأعينهم تنفيذ حكم الإبادة، والذي اختلف المفسّرون في وصفه، فذكر بعضهم أنه صاعقة هائلة اجتثّتهم بالريح والحرق، وقال آخرون بل كانت صيحة مدوّية تخلع القلوب وتترك الأجساد جُثثًا هامدة.

ثم يأتي المشهد الختامي: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ﴾، ويالها من خاتمة، وكأني أتخيّل هذا النبيّ الجليل الصابر وهو ينظر من بعيد للقصور المنحوتة في الجبال، وهي خاوية، ثم يولّي ظهره قاصدًا فلسطين -كما يقول مفسّرون- ومردّدًا: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

وكما ظلّت آثار عاد شاهدة على هلاكهم، ظلّت أيضا آثار ثمود قائمة ليتّعظ بها مَن بعدَهم: ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [النمل: ٥٢-٥٣].

جاء في الصحيحين عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ قال: (لا تدخلوا على هؤلاء المعذّبين إلّا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم لا يصيبكم ما أصابهم)، وذلك لما مرّ مع أصحابه بالحِجر، وهي ديار ثمود، أثناء توجّههم إلى غزوة تبوك. وفي رواية البخاري: (ثم قَنَّعَ رأسه وأسرع السير

حتى أجاز الوادي) [البخاري: ٤٤١٩]، ولمسلم (ثم زجر -يعني دابّته- فأسرع حتى خَلَّفَهَا) [مسلم: ٢٩٨٠].

واللافت أنّ النبي ﷺ أمر أصحابه بعد مغادرة المكان سريعًا بإهراق الماء الذي استقَوه من تلك الأرض؛ إلا ما استقوه من بئر الناقة، كما أمرهم أن يعلفوا الدواب العجين الذي عجنوه من ماء آبارهم، وكأنّ الماء نفسه قد حلّت به اللعنة في هذا المكان المشؤوم(١).

وإذا كان الله -جلّ شأنه- قد حكَمَ برحمته بألا تُستأصل شأفة أمة محمد ﷺ(٢)، فنحن لا نملك وعدًا بعدم نزول العذاب على جزء من هذه الأمّة في الدنيا، ولا بد أن نتّعظ بهذه القصص التي نرى بعض مقدّماتها اليوم.

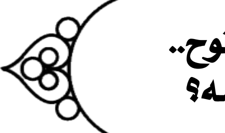
ومع أني كنت منذ طفولتي أتلو آيات قصة الناقة، إلا أنّي لم أدرك فداحة عَقرها، ولا شقاء قاتلها، إلا بعد هذا التدبّر. فقد يسبق إلى الذهن أن الطغاة والجبابرة هم أكثر الناس شقاء وإجرامًا، ونغفل عن فتنة القوة والسيطرة التي امتُحنوا بها قبل أن

---

(١) مع أن الشائع في الثقافة الشعبيّة الاعتقاد بأن "مدائن صالح" في شمال السعودية هي مساكن قوم ثمود، لكن التحقيق التاريخي يثبت أنها من آثار النبط، وأنّ عمرها في حدود ألفي عام، أمّا قوم صالح فكانوا أقدم بكثير، ويرجّح بعض الباحثين أنّ موقعهم في موضع "الخريبة" على مسافة عشرة أميال ممّا يسمى بمدائن صالح، ويبدو من الأحاديث الصحيحة أنّ العرب كانوا يعرفون هذا الموقع بدقّة، وأنّ النبي ﷺ وصحابته عرفوا تحديدًا أي بئر كانت الناقة تشرب منه، إما بالوحي أو لكونها حقائق متداولة بين سكان المنطقة جيلًا بعد جيل، لكن تحديد هذه المعلومات الجغرافية لم يوثق بدقة على الخرائط أو في الروايات الشفوية لتصل إلينا كما وصلت الأحاديث الشريفة.

(٢) جاء في الحديث الصحيح فيما يرويه النبي ﷺ عن ربه: "وإني أعطيتُك لأمّتِك ألَّا أهلكهم بسَنة عامَّة" [رواه مسلم].

يتجبّروا، أمّا الأشقياء من عامّة القوم، وإن كانوا على قدر من النفوذ مثل الرهط من قوم ثمود، فلم تكن لهم قصور وحاشية، ولا جيوش جرّارة تهتف بأسمائهم، ولا شعوب مقهورة تسجد بين أيديهم، لكن الجحود استبدّ بعقولهم حتى عطّلها، وجنون العظمة تردّى بهم إلى ما رأيناه من التحدّي الذي لا يملكون أدنى مقوّماته.



# ما بين سورتي يونس ونوح.. لماذا يدعو نبيٌّ على قومه؟

كنت أقرأ في سورة يونس العظيمة، وهي تحلّ في الترتيب العاشر من سور المصحف، وتسبقها سورةُ التوبة بكلّ ما فيها من دروس عن القتال والمفاصلة، وتسبق بدورها سورة هود وسُورًا أخرى تحمل الكثير من تفاصيل قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وجدتُ في مقدمة السورة ما يوحي بمحتواها: ﴿الٓر ۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ١-٢]، فهي تؤازر الرسول ﷺ في مواجهة مكذّبيه العتاة، وتسلّي قلبه بقصص إخوته من الأنبياء الذين عانوا كثيرًا من تكذيب أقوامهم، وتُنذر أولئك المتكبرين بعذاب وشيك: ﴿وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [يونس: ١١].

مرّت سبعون آية من السورة في نقاش المشركين، ثمّ بدأتْ قصة نوح عليه السلام في الآية الواحدة والسبعين، واختُصِرت في ثلاث آيات. وبإيجاز بليغ وجدتُ تركيزًا على جانب التكذيب وما يتبعه من وعيد: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [يونس: ٧٤].

تبدأ بعدها مباشرةً قصة موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام: ﴿ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ

بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ [يونس: ٧٥-٧٦]، فمحورُ السرد هنا هو الإشارة مباشرة إلى التكذيب والاستكبار، لذا توجز الآيات التاليات إصرار قوم فرعون على تكذيب الآيات المعجزات حتى بعدما آمن بها السحرة أنفسهم، لتنطبع في ذهني تلقائيًّا صورة كائنات أقرب إلى الجمادات منها إلى البشر.

ثم جاءت الآية التي تستحقّ التوقّف: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٨-٨٩]، فنحن هنا أمام دعوة من نبيّين كريمين على قومهما بألا يهتدوا، وإجابة إلهيّة لهذا الدعاء.

قال بعض المفسرين إن اللام في قوله "ليضلّوا" هي لام العاقبة والصيرورة، فيكون المعنى: أعطيتهم يا رب الزينة والمال كي يخلصوا لك العبادة، ولكنهم لم يفعلوا، فكانت عاقبة أمرهم الضلال.

وقال آخرون إنها لام للتعليل، فيكون المعنى: أعطيتهم يا رب زينة وأموالًا على سبيل الاستدراج كي تمتحنهم بعد ضلالهم، فازدادوا طغيانًا على طغيانهم.

وأيًّا كان معنى اللام، فإن السؤال الذي طرأ على ذهني هو: لماذا يدعو نبيّان كريمان على قومهما؟

كانت الصفحة السابقة من المصحف ما زالت ماثلة في الذهن، فالسورة لم تذكر سوى قصة نوح عليه الصلاة والسلام، وجاءت بها موجزة ومركزة، ثم أشارت بإيجاز في آية أخرى -كما أسلفت- إلى تكذيب الأقوام التالية على قوم نوح، وكأنها

إشارة إلى ما تواطأ عليه الطغاة من إصرار على التكذيب.

تابعتُ القراءة بحثًا عن جوابٍ شاف، وما إن انتهت قصة موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام، حتى لاح لي أنّ الآيات وكأنها تنبش في عقلي وقلبي مباشرة، ووجدتها تقول في خطاب مباشر للنبي ﷺ نفسه، وهو الذي كان يتلقّى الوحي قبل أن يصل إلينا: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [يونس: ٩٤-٩٥]، فقلتُ في نفسي: ياله من تحذير! فلو أن كافرًا كان يقرأ هذه الآيات، وهو يعتقد أنّ محمّدًا ﷺ جاء بهذا النص من عنده، ما كان ليخطر على باله أن محمّدًا سيخاطب نفسَه بهذه الطريقة. إنها آية تصدح باليقين قبل أن يطرأ الشك نفسه، وتؤيّد ما جاء في السورة من قصص بما حفظه أهل الكتاب لديهم.

وماذا بعد؟! تأتي الآية التالية بتقرير جازم، فحرف "إنّ" حرفٌ للتأكيد ونفي الإنكار والشك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧]. قال المفسرون: أي إنّ الذين حكم الله عليهم بعدم الإيمان لأنّهم استحبّوا الضلال على الهدى باختيارهم ابتداءً، لن يؤمنوا بالحق، حتى لو جاءتهم كل الآيات والمعجزات.

ثم تبدأ قصة أخرى مباشرة: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨]، واختلف المفسّرون في رواية ما حدث بقوم يونس، وهم سكّان نينوى في العراق، فبعد أن كذّبوا نبيّهم كما فعلت الأقوام الأخرى، أنذرهم يونس عليه السلام

بالعذاب خلال ثلاثة أيام، وبما أنهم لما يجرِّبوا عليه كذبًا فقد اتفقوا على التربّص والحذر، وعندما وجدوا أن يونس ترك القرية في الليل سارعوا إلى إعلان توبة جماعيّة، فتاب الله عليهم. وقال مفسّرون آخرون إنّ العذاب كان قد بدأ بالنزول فعلًا، حيث أظلمت السماء واسودّت سطوح منازلهم، فهرعوا إلى التوبة، فكشف الله عنهم عذاب الدنيا كما في الآية.

وفي الآيتين التاليتين، يستمر البيان: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، فالله قادر على هداية الناس جميعًا، إلا أنه لم يظلمهم عندما منحهم حرِّيّة الاختيار، والذين كفروا فعلوا ذلك بإرادتهم الكاملة، ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٠٠] فاختيار أي إنسان للإيمان لا يكون معارِضًا لمشيئة الله، وهذا بدهيٌّ، لكن اختيار الإنسان للكفر ليس نتيجة لإجبار الله له عليه، بل يجعل الرجس على الذين لا يعقلون أصلًا، أي الذين اختاروا الجحود بأنفسهم، فيختم الله على قلوبهم عقوبة لهم.

واصلتُ القراءة مرورًا بالمزيد من الوعيد لمشركي قريش، والتصبير والتسلية لقلب النبي ﷺ. ثم اختتمت السورة بآيتين بليغتين: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: ١٠٨]، ففيها تأكيد على إقامة الحجة واكتمال ظهور الحقيقة، ثم أمرٌ مباشر للنبي ﷺ بالصبر وانتظار المفاصلة يوم القيامة: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٩].

وهكذا انتهت السورة الجليلة، ولكن الأسئلة كانت ما تزال تدور في رأسي، فلماذا حملت السورة اسم النبيّ يونس عليه السلام مع أنّه لم يُذكر إلا في آية واحدة، وقد جاءت قصّة قوم موسى في حيِّز أكبر من السورة نفسها؟

## سورة هود

واصلتُ القراءة مفتتحًا سورة هود، وهي تحمل أيضًا اسم نبي كريم آخر، وموضوعُها لا يُفارق أيضًا ساحة النقاش وتقريع المشركين وإنذارهم، وكذلك تسلية النبيّ ﷺ الذي يواجه من أذى قومه ما واجهه الأنبياء السابقون.

وبعد صفحتين، وجدتُ نفسي مجددًا أمام قصة نوح عليه الصلاة والسلام، وهو أوّل أولي العزم من الرسل في الترتيب الزمني، فقبل بَدْء القصة كانت السورة تمايز بين نوعين من البشر: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤]، ثم بعد بضع آيات رأيت نوحًا عليه الصلاة والسلام يخاطب المكذِّبين من قومه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [هود: ٢٨]، فما وجدتُ وضوحًا وإيجازًا خيرًا من هذا، فالنبيّ هنا يتحدّث بثقة عن "البيّنة" التي هو عليها، أي الهداية الواضحة والموافقة للعقل والفطرة، ويتحدث عن "العمى" الذي يقبعون هم فيه، ثم لا يأتي استنكاره إلّا في المسألة نفسها التي ما زالت تدور في رأسي منذ طرحي للسؤال الأول عن طمس قلوب قوم موسى، فيتساءل نوح مستنكرًا: هل أُجبركم على الهداية وأنتم لها كارهون؟!

اللافت أيضًا أن جواب نوح القاطع هذا جاء بعد بيان سخف القوم، إذ قالوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧]، ومقولتهم هذه مغالطة منطقية صارخة الوضوح، فحجّة الملأ في عدم اتّباع النبيّ نوح هي أنّ أتباعه من ضعفاء القوم وعامّتهم فقط!

وبعد انتهاء محاججة نوح لهؤلاء الحمقى، يأتي ردّهم العجيب: ﴿قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود: ٣٢]، إذ لم يطلبوا منه دليلًا آخر، ولم يضعوا أمام أعينهم احتمال كونهم مخطئين ليطلبوا الهداية، بل قفزوا مباشرة إلى طلب تعجيل العذاب. ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود: ٣٣]، فالأمر منوط بمشيئته فقط، والرسل لا يدّعون لأنفسهم أمرًا فوق ما تقتضيه مهمّة التبليغ.

ثم عودةٌ إلى مركزية السؤال الملحّ، وجدليّة الهداية والغواية، فيقول نوح عليه السلام: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود: ٣٤]، فهو يقطع بأن النصح مهما طال لن يجدي ما لم يأذن الله بالهداية.

وإن طرأ هنا على بالك -عزيزي القارئ- سؤالٌ عن إرادة الله جل وعلا لهم الغواية، كما في الآية السابقة، فقد ذكرتُ لك آنفًا أن الله لا يطمس على قلب الجبابرة إلا عقوبةً بعد إقامة الحجة، وستقرأ معي بعد آيتين فقط: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦]، فالله االذي

وسِع علمه كل شيء -وعلمُ الله تعالى كاشفٌ وليس بمُجبِر- قد علِم بعلمه الأزليّ أنّه لن يؤمن أحد من قوم نوح إلا من قد سبق وآمن، وهو سبحانه الذي أخبر نبيّه بذلك، ثم أمره ببناء السفينة كي ينجو بها مع القلة المؤمنة من العذاب المهلك.

هنا لمعت في الذاكرة قصة نوح الواردة في سورة العنكبوت: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤]، واستحضرتُ حال هذا النبيّ العظيم الذي أقام على المجادلة والنصح والوعظ قرابة عشر قرون، ولم يؤمن به إلا القلّة. ولو أنّ أحدنا جادل ملحدًا معاندًا في جلسة واحدة ووجد فيه عُشر تلك الحماقة والجحود لأصابه اليأس، وربّما قام من مجلسه وهو يضرب كفًّا بكفّ، ويدعو على الجاحد بأن يزيده الله عمى!

## سورة نوح

قفزتُ مباشرة إلى سورة تحمل اسم هذا النبيّ العظيم، أوّل أولي العزم، وأطولهم جَلَدًا لامتداد عمره، وهو الذي بُعث في باكورة عمر البشريّة، فلم يكن الوحي ينزل عليه بقصص أقوام سابقة ليسلّيه ويذهب عن قلبه الحزن.

رأيت في تلك السورة القصيرة أشكالًا عجيبة من الكبْر وسوء الأدب في حق نبيٍّ مُرسَلٍ، ممّا لا يحتمله أحدنا لو كان قد تلقّاه من أحد السفهاء ولو مرة واحدة: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧].

تخيّل عزيزي القارئ، تسعمئة وخمسين عامًا من المحاولات، بكل أنواع الدعوة ولفت الانتباه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح: ٥]، ﴿ثُمَّ إِنِّي

دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا﴾ [نـــوح: ٨-٩]، ومـــع تقـــديم الإغراءات الدنيويّة أيضًا: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾ [نـوح: ١١-١٢]، ولكـن مـن غيـر أيّ جـدوى، فلـو كـان الله -جـل شأنه- يريد إغواءهم بلا سبب ما كان سيرسل لهـم نبيًّا صبورًا بهذه العزيمـة النـادرة، وما كان رسولُه سيقدّم لهم هذه الوعود.

بعد هذا الصبر كلّه، ممّا لا يقدر عليه إلا أهل العزم من الرسل، يمكنني الآن أن أفهم دعاء هذا الرسول الصابر علـى قومـه: ﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، ليس فقط لأنه انتظر قرابـة عشـرة قـرون، بـل أيضًـا لأن الله تعـالى أوحى إليه -كما رأينا في سورة هود- أنّه لن يؤمن أحد من قومه إلا من قد آمن.

وهنـا يمكنني أن أفهـم لمـاذا أَتْبَـع نـوح عليـه الصـلاة والسـلام دعـاءه وشـكواه المؤلمة بقوله: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا﴾ [نوح: ٢٧]، فالله هو الذي أخبره بذلك، وأَمَره من بعدُ ببناء السفينة وانتظار الطوفان.

## عودة إلى يونس

عـادت بـي دوائـر الأسـئلة إلـى نقطـة البدايـة، وتـرجّح عنـدي مـا قالـه بعـض المفسرين، وهو أنّ موسى عليـه الصـلاة والسـلام لـم يـدعُ الله بـأن يشـدُدَ علـى قلـوب فرعون وقومه إلا بعدما أوحي له بموتهم على الكفر.

وقلـتُ في نفسـي: إن ذِكْـر دعائـه هـذا في سـورة حملـت اسـم النبيّ يـونس عليـه السلام قد يكون للإشارة إلى صبر هذا النبيّ وما تعرّض له من محنـة، وإلـى أنّ الأمـل

قد يأتي من حيث لا نعلم، فقرية يونس هي الوحيدة التي آمنت كلها كما تقول الآية: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ [يونس: ٩٨]، بل هي الوحيدة التي آمنت بعدما يئس نبيّها منها!

كان أهلُ نينوى قد كذّبوا نبيّهم يونس عليه السلام كما أسلفت، وعندما أنذرَهم بالعذاب تربّصوا، فلما رأوه خارجًا من بين ظهرانيهم، أعلنوا التوبة على الفور فكشف الله عنهم العذاب.

لكن القصّة لها جانب آخر، فنبيُّ الله يونس عليه الصلاة والسلام لم يكن قد تلقّى الأمر الإلهي بالخروج بعد، إذ تقول فيه الآية: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ أي خرج في حالة غضب قبل أن يأذن الله له، ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي كان يحسب أن الله تعالى لن يقضي عليه ما قضى من حبسه في بطن الحوت، لغلبة ظنّه بأنه قد قام بالمهمّة كاملة، فكان ما كان، والتقمه الحوت في البحر: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

ولو أنّ يونس عليه الصلاة والسلام انتظر ساعات فقط كانت عينه ستقرّ بتوبة قومه، وكان سيرى مشهدًا غير مسبوق، وهو إيمان قرية كاملة، وخروج أهلها مع النساء والأطفال وهم يلبسون المسوح (الملابس الغليظة)، وقد فرّقوا بين كل بهيمة وولدها، ثم عجُّوا إلى الله بالبكاء والتضرع، وجأرت الدواب والمواشي في مشهد مهيب، حتى غشيتهم الرحمة ورفع الله عنهم العذاب[١].

وسواء كان يونس عليه الصلاة والسلام قد انتظر أو لم ينتظر، فإنه لم يدعُ على

(١) الدر المنثور في التأويل بالمأثور، ج ٧، ص ٧٠٥.

قومه بأن يشدُدَ الله على قلوبهم، لأن الله لم يوحِ له بذلك، بل عوقب لتعجُّله بالخروج فقط، وفي هذا ما يكفي للدلالة على رحمة الله بعباده، وإمهالهم حتى اللحظة الأخيرة، فمن تمام كرمه أنّه عاقب أحد رسله الكرام لأنّه لم يصبر حتى يأتيه الإذن بالخروج مع استحقاق قومه للعذاب.

وفي هذا أيضًا درس لنا في عدم التعجّل بالحكم على أحد من الناس، فالأنبياء الذين دعَوا على أقوامهم لم يُقْدموا على هذه الخطوة إلّا بعدما أخبرهم الوحي بانقطاع الأمل منهم، بل ظلّ نوح عليه السلام قائمًا بالدعوة قرابة عشر قرون، كما ظلّ موسى عليه السلام يقدّم لقوم فرعون الآية تلو الأخرى، حتى بلغت تسع آيات، وهو ينتظر أمر الله فيهم.

بل سيزداد عجَبك -عزيزي القارئ- إن علمتَ أنّ موسى ظلّ ينتظر بعد دعائه عليهم أربعين سنة، وهي ليست مدّة الدعوة وتكرار المحاولات، بل فقط مدّة انتظار أمر الله بإهلاك فرعون وقومه بعد أن علمَ موسى بأنّهم لن يؤمنوا[1].

قال الزمخشري في معنى قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا﴾ "إنّ دعاءكما مستجاب، وما طلبتما كائن، ولكن في وقته، فاستقيما، واثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة والزيادة في إلزام الحجة، فقد لبث نوح عليه السلام في قومه ألف عام إلا قليلا، ولا تستعجلا"[2].

ومع اكتمال هذه الصورة، أقول لعل سورة يونس اقتصرت على سرد قصص نوح وموسى ويونس لاشتراكها في استنباط هذا الدرس المهم، وفي السلوى التي

(١) المرجع السابق، ج ٧، ص ٦٩٥.

(٢) الكشاف، ج ٢، ص ٣٦٦.

تقدّمها لقلب رسولنا الكريم ﷺ، فخاتَم الأنبياء هو الذي اجتمعت بين يديه كل تجارب سابقيه، وهو أشدّهم عزمًا وأعظمهم صبراً، وهو الذي تلقّى الأمر الإلهيّ للارتقاء إلى أعلى مراتب الرسل: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وهو الذي تلقّى الموعظة بعدم استعجال العقوبة على قومه: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨]، وهو الذي تلا على قومه كل تلك القصص والأوامر، وظلّ صابرًا على جحودهم حتى أدّى الأمانة، صلوات ربي وسلامه عليه.



# يعقوب ويوسف..
# لا تقصص رؤياك على إخوتك

منذ ورودها في "الكتاب المقدّس"[١]، وعلى مرّ القرون، خلبَت قصة يوسف عقول البشر، وألهمتْ مبدعي الشعر والرسم والروايات والتلفزيون والسينما بما لا يحصى من الأعمال الجميلة، وما زالت وستبقى من روائع القصص العابرة للزمان والمكان واللغات والثقافات، بما فيها من عناصر التشويق وعمق الحِكَم وفضائل الأخلاق.

فما بالك إذن إن قرأتَها في أجمل قالب أدبيٍّ عرَفَتْه البشرية؟ وكيف يكون شعورك إن تمثّلت دور ضيف جديد على الإسلام، وقد عثر في المصحف على هذه المفاجأة: سورة يوسف؟ وكيف ستكون نشوتك وأنت تقرأ "أحسن القصص" مستحضرًا حقيقة أن الله -جل شأنه- هو الذي يحكيها لك؟

يروى عن خالد بن معدان أن "سورة يوسف وسورة مريم يتفكّه بهما أهل الجنّة في الجنّة"[٢]، فهذه المتعة تليق بمزاحمة ملذّات الذوق الرفيع هناك. ويقول ابن عطاء: "لا يسمع سورة يوسفَ محزونٌ إلا استراح إليها"[٣]. ولا عجب، فما زلتُ أذكر كيف عثرتُ فيها على سلواي في أحلك الظروف، وكيف كنتُ أبكي وأنا أكرّر

---

(١) "الكتاب المقدس" The Bible مصطلح يقصد به مجموع العهدين القديم والجديد، الذي يؤمن به معظم اليهود والنصارى في العصر الحديث.

(٢) تفسير البغوي، ج٤، ص: ٢١٢.

(٣) المصدر السابق ذاته.

إحدى أروع آياتها: "إنما أشكو بثّي وحزني إلى الله"، وكيف تلامس هذه الكلمات شغاف قلبي كلما كرّرتها.

لعلك عزيزي القارئ تتشوّق إلى أن أحكي لك طرفًا مما استحسنه فطاحلة الأدب من هذه السورة، لكن الغوص في بحار اللغة فنٌّ أزعم أني لا أجيده، لذا سأُبْحر معك في اتجاه آخر، وسأحدّثك عن سؤال خطَر على بالي أثناء التدبّر، فانفتحتْ لي من خلاله أبواب جديدة من تذوّق الحكمة.

**مكيدة الإخوة والأبناء**

تخيلْ معي هذا المشهد الذي كان فاتحةً لمعاناة اثنين من أنبياء الله: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ﴾ [يوسف: ١٦-١٧]، وتخيلْ نظرات الأب المكلوم وهو يستمع لأولاده، ويرى في عيونهم الكذب الذي ما استطاعوا إخفاءه: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧].

ثمّ تخيّلْ يعقوب عليه السلام، وهو يحمل قميص يوسف المضرّج بالدم: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ﴾، ويراه سليمًا غير ممزق، فيتجرّع علقم الصبر: ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

هنا قفز السؤال في رأسي: لماذا سكت يعقوب عليه الصلاة والسلام على الجريمة التي لم يصدّقها؟ ولماذا لم يهرع إلى الموقع ليبحث عن فلذة كبده كما سيفعل أي واحد منا لو كان مكانه؟ بل لماذا لم يُجبِر أولاده على الاعتراف بما فعلوه بأخيهم؟ ولماذا اختار الطريق الأصعب مكتفيًا بالصمت والصبر؟

توالت أحداث القصة بكل ما فيها من تشويق يحبس الأنفاس، وشلغتني فصولها المتتابعة عن السؤال، لكن نبي الله يعقوب، ذاك الشيخ الجليل، لم ينسَ أحبّ أولاده إلى قلبه، وظلّ متشبّثا بالصبر الجميل مستعينًا بالله، إلى أن عاد إلى واجهة الأحداث مرة أخرى.

فبعد سنوات طويلة، جاء الاحتكاك الأول بين يوسف عليه السلام -الذي صار أمينًا على خزائن مصر- وبين إخوته: ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [يوسف: ٥٨]، ثم ابتكر يوسف مكيدة ليستبقي عنده أخاه، وعجِزَ إخوته عن استرجاعه، فعادوا إلى أبيهم يجرّون أذيال الخيبة وقد نقص عددُهم مرة أخرى، فما كان من يعقوب عليه السلام إلا أن كرّر جوابه الأول: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ [يوسف: ٨٣]، وكأنه فقَدَ الثقة بأولاده وما عاد يصدّق دعواهم، وتوجّه إلى الله بدعائه ليجمع شمله بولدَيه: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [يوسف: ٨٣]، بعدما ظنّوا أنه قد نسي يوسف وانقطع أمله من لقائه.

عجبتُ أيضًا من إصرار يعقوب، وقد صار شيخًا مُسنًّا، على كتمان ألمه في قلبه، وتذكّرتُ موقفه عندما قال له يوسف في صغره: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴾ [يوسف: ٤]، فكانت وصيّة يعقوب: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ ﴾ [يوسف: ٥]، فليس كل ما يُعرف يقال، ولا كل الأوجاع تُعالَج بالبوح.

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ﴾ من دون أن يطالبهم بالإفصاح عن شيء، واكتفى بسكب

دموعه حتى انطفأ نور عينيه: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴾ [يوسف: ٨٤].

أما أولاده الذين يلاحقهم شعور الذنب عشرات السنين، ولا يجرؤون على الاعتراف بفعلتهم الأولى، فما زالوا يعجبون من صبر أبيهم وطول أمله، ويتساءلون: ﴿تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴾ [يوسف: ٨٥] حزنًا وكَمَدًا؟!

ومَن يقدِر على كتمان وجعه طوال تلك السنين إلا الأنبياء؟ ومَن غيرُهم يمثّل بسلوكه مدارس الصبر: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٨٦].

**الابتلاء للصبر**

أخيرًا، حصلتُ على الجواب، وأيقنتُ عند الجملة الأخيرة: "وأعلم من الله ما لا تعلمون" أن يعقوب عليه السلام كان قد أوحي إليه من البداية، فالظاهر أن الله تعالى أمره بالصمت والصبر عندما جاؤوا إليه بقميص يوسف، فكتم همّه الكبير في قلبه، وظلّ ينتظر الفرج يومًا بعد يوم، وشهرًا بعد شهر، وسنةً بعد أخرى، حتّى فقدَ ولده الثاني، ثم لحقَ بصرُه بولديه، وهو يأوي صابرًا محتسبًا إلى جنب الله من غير أن يبوح بكلمة.

وتذكّرتُ أيضًا أنّ يوسف قد أوحي إليه عندما ألقاه إخوته في غيابة الجبّ: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥]، فأنزل الله السكينة عليه، وألقى في رُوْعِه أن وراء المكيدة حكمةٌ إلهية، وأنه مأمور بالصبر إلى أن يحين الموعد. فصبرَ يوسف كصبر أبيه، وتحمّل مشقّة الأسر والغربة والسجن بضع

سنين، وعندما انقلب مقامه من السجن إلى القصر: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ [يوسف: ٥٦] لم يخرج في طلب أهله والبحث عنهم، بل ظلّ ينتظر الأمر الإلهيّ.

كِلا النبيّين كتما السرّ في قلبيهما، وتابَعا مهمّة هداية الناس وتبليغ الرسالة من غير استعجال. وعندما حانت لحظة الحقيقة: ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾، وبكل بساطة: ﴿قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾، ولخّص عليه السلام الدرس في تقواه وصبره: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

وحانت ساعة الاعتراف والاعتذار والندم: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٩١]، وهي نفسها ساعة الصفح عند النفوس الزكيّة: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

ثم ساعة الفَرَج التي انتظرها يعقوب عليه السلام طويلًا: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾، وهي أيضًا ساعة بوحِه بما كان مأمورًا بكتمانه والصبر عليه: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٦].

وأخيرًا، ساعة الاعتذار الأخيرة بين يدي أبيهم، ورجاءُ المغفرة بدعائه: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٩٧]، وهي أيضًا ساعة العفو والخُلق الرفيع: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٨].

التــأم شــمْل العائلــة أخيــرًا: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ ﴾، وتحقّقت حكمة الابتلاء، فبعد مكابدة الفراق والفقر، اكتملت نعمة اللقاء بالانتقال إلى مصر: ﴿وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ [يوسف: ٩٩]، وقد عوّضهم الله عما فات بالأمن والعزّ.

وقرّت عين يوسف بتحقّق النبوءة: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗا ﴾، وأخذ يعدّد نِعم الله عليه: ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ ﴾. فلم ينتقم ولم يشمت بإخوته، ولم تسحرْه سطوة السلطة وهم يخرّون له سجّدًا، بل نسب الأمر كلّه إلى الشيطان: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓ ﴾، ولم يقل لأبيه أرأيت كم صبرنا وعانينا؟ فاكتمال الإيمان في قلوب الأنبياء لا ينضح إلا بالامتنان: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وتابع يوسف تعداد النِّعم بتواضُع العظماء: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١].

أرأيت عزيزي القارئ كيف يتجسّد كبَد الحياة في قصص أحبّ الخلق إلى الله؟ وقد قال النبيّ ﷺ (أشدّ الناس بلاءً الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل)[1]. فالله لم يبعثهم للتبليغ فقط، بل ليعلّمونا الصبر أيضًا على ما ينزل بهم من بلاء ومِحن، وهم مع كل ما حباهم الله به من فضائل يظلّون بشرًا مثلنا، يألمون ويبكون ويحزنون،

(١) أخرجه أحمد وغيره، وصححه الألباني.

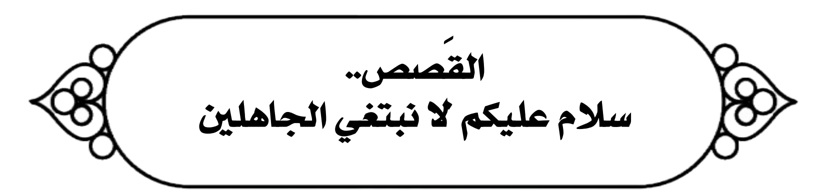
فيجسّدون بمعاناتهم وصبرهم وصدق توكّلهم أروع القصص الإنسانيّة، وأنضجها وأكثرها نفاذًا إلى أعماق القلوب.

لذا تقول السورة بعد المشهد الختاميّ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ ﴾، فهم ليسوا ملائكة، بل رجال مثلنا، وما علينا إلا البحث في منابع هذه الحكمة والاتعاظ بمن سبق: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ ﴾ [يوسف: ١٠٩].

ثم تضع السورة درسًا بليغًا بين يدينا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ [يوسف: ١١٠]، وكأنه تقريع لمن يستعجل الفرج، وتذكير بما لقيه النبيّان الكريمان يعقوب ويوسف من امتحان استهلك الكثير من أعمارهما، وهما ينتظران من غير أن يبوحا بكلمة.

وكما بدأتِ القصة بآية: ﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [يوسف: ٣]، تختتم بآية: ﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ ﴾ [يوسف: ١١١]، فلا يتّعظُ مِن أحسنِ القصص إلّا أولو الألباب، وما عداهم فيمرّون بها للترفيه والتسلية.

و﴿مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ ﴾، ولا قصةً عابرة، ﴿وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾، فهذه صفاتُ القرآن الذي منّ الله علينا بفرصة تدبّره.



## القَصص..
## سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين

مع بداية القرن الحادي والعشرين، غيّرتْ ثورة المعلومات والاتصالات وجه العالم، فقلّصت مسافات التواصل وأزالت القيود عن تبادل الأفكار والأخبار، وأتاحت لعامة الناس الانتقال من دور المتلقّي إلى "صانع محتوى" و"مؤثر"، حتى إن كان تافهًا في شخصه وعقله.

ومع بداية العقد الثاني من هذا القرن، انفتحتْ أبواب الثورات والاضطرابات والحروب على معظم بلدان المنطقة العربية، ووجدت الأطرافُ المتناحرة منابرَ مفتوحة للصراع على الفضائيّات ومنصّات التواصل الاجتماعي. وإذا كانت الهزّات السياسيّة تعقبها غالبًا خلخلةٌ للمجتمعات، فما بالك إذا وافقتْ -في عصرنا هذا- انفتاحًا إعلاميًّا وتدخُّلات خارجيّة؟

وجدَ الشباب والناشئون أنفسهم في حالة غير مسبوقة من الهرج والمرج، فاهتزّ ما كانوا يحسبونه من الثوابت، وانهار الكثير من المبادئ والقيَم والعقائد، وأصبحت المجتمعات العربيّة -التي كانت توصف بالركود- مكشوفة فجأة على الفتن والسيولة.

وكما مرّت مجتمعات أخرى من قبلُ، في الشرق والغرب، بزلازل فكريّة واجتماعيّة هائلة، فقد لاح شبحُ العدميّة في منطقتنا المتخمة أَصلًا بجراح التبعيّة والفقر والطغيان والفساد.

### حافّة الضياع

العدميّة تيّار فكري ينقض الأسس التي يمكن أن يُبنى عليها أي نظام فكريّ أو سياسيّ، وهي موقف أيديولوجيّ مسبق يتّخذ من الرفض والتمرّد والنقض شعارًا له، فالعدميّ يرفض الحقيقة الموضوعيّة والمعرفة، ويتمرّد على المبادئ الدينيّة والأخلاقيّة، ويعتقد أن الحياة لا معنى لها.

وإنْ تورّطتَ في مجادلته فستعجز عن الاتفاق معه على أي قاعدة للنقاش، فهو يفترض غالبًا الشك في المعرفة نفسها، أي ينفي إمكانيّة التأكّد من أن المعارف البشريّة كلّها -حتى معرفته هو- صحيحة أو غير صحيحة، فإمكانية المعرفة نفسها محلّ شك عنده، وهو ينفي أيضًا عن نفسه الانتماء لأي شيء، وقد يسعى لأن يهدم ما لديك من معارف وانتماءات لتضيع معه.

ومع أن هذه الأفكار تبلورت في إطار فلسفيٍّ عام تحت مظلّة "ما بعد الحداثة" في القرن العشرين، إلا أنها ليس منبتّة عن التاريخ، فجذورها واضحة لدى حركة السفسطة الإغريقيّة، التي دُوّنت ملامح تهافتها في حوارات سقراط وأفلاطون، وأكاد ألمحُ آثارها أيضًا في حوارات المتمرّدين على رسالات الأنبياء في شتى العصور، والتي سجّل القرآن الكريم بعضًا من عجائبها.

### جحود بلا منطق

أتوقّع أن النهي الإسلامي عن الجدل العقيم لا يخفى عليك -عزيزي القارئ- فمن أكثر الوصايا النبوية شيوعًا قوله ﷺ: (أنا زعيم ببيت في رَبَض الجنّة لمن ترك

المِرَاء وإن كان مُحِقًّا)[1]، وقوله أيضًا: (إذا رأيتَ شُحًّا مُطاعًا، وهوىً مُتَّبَعًا، ودنيا مؤثرة، وإعجابَ كل ذي رأي برأيه، فعليك بنفسك ودع عنك العوام)[2].

ومع ذلك، قد أجد نفسي عالقًا أحيانا في نقاش غير متوقَّع مع سفسطائي، أو عدميّ، فأرى أن الحل لا يكون إلا برمي الكرة في ملعبه، وبدلًا من محاولة البرهنة على ما أعتقِد، أو حتى نقض معتقده هو -إن وُجد- أطلب منه تقديم البديل الذي يمكننا أن نتفق عليه، أو على الأقل تحديد المعايير التي يمكننا أن نحتكم إليها.

وبما أن القرآن العظيم فيه ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يوسف: ١١١]، فقد كنت على ثقة بالعثور على المنهج المثاليّ للتعامل مع السفسطائيّين في بعض آياته، لا سيما في الحوارات التي وثّقها القرآن بين الأنبياء والجاحدين، ولم أُفاجَأ عندما وجدتُ إفحامهم أحيانًا بالأسلوب نفسه، وتحديدًا عندما يبلغ الجاحد الحدَّ الفاصل بين العقل والهوى.

ولعل الأمثلة كثيرة، لكن سأكتفي هنا بتدبّر بعض آيات سورة القصص، فبعد فراغه من سرد قصة موسى عليه السلام، يقول الوحي المعصوم: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧]، أي لولا قولهم إذا أصابتهم مصيبة بسبب ذنوبهم لماذا لم يُرسَل إليهم رسول، ما كان الله ليبعث الرسل، وهو جواب شرط محذوف كما يقول القرطبي[3].

---

(١) أبو داود: ٤٨٠٠.

(٢) أبو داود: ٤٣٤١، والترمذي: ٣٠٥٨.

(٣) صفوة التفاسير، ص ٨٧٩.

وكأنّ إرسال الرسل جاء لإقامة الحجّة على تلك العقول المتحجّرة. فمع أن إيمانها واقتناعها مستحيل، إلا أنها أصحابها سيحاججون بعدما يأتيهم الرسل، كما تتابع الآيات التالية: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ﴾ [القصص: ٤٨]، أي أنّ مشركي قريش طالبوا محمّدًا ﷺ بأن يأتيهم بما جاء به موسى من معجزات وكتاب إلى بني إسرائيل، فجاء الرد: "أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل؟"، أي أو لم يكفر الذين تعلّموا هذه الحجة من اليهود بما جاءهم به موسى؟ فقد كان اليهود يلقّنون المشركين بمثل هذه الردود لمجادلة النبي ﷺ.

وقد ذكر المفسّرون أن المشركين أرسلوا إلى رؤوس اليهود بالمدينة يسألونهم عن محمّد، فأخبروهم أن صفاته مذكورة حقًّا في التوراة، فما كان من المشركين إلا أن قالوا: "سِحران تظاهَرا"، وفي قراءة أخرى "ساحران تظاهرا"، أي أن التوراة والقرآن سحران متوافقان، أو موسى ومحمّد (عليهما الصلاة والسلام) ساحران.

وهذا يعني أن المشركين مستعدّون للأخذ عن اليهود ما يوافق هواهم، فلمّا شهِد بعض اليهود في مراسلاتهم السرّيّة بأن محمّدًا ﷺ صادق فعلًا أنكر المشركون صدق التوراة بكل بساطة!

أمام هذا التناقض، لا جدوى من مناقشة تلك العقول سوى بوضع "الكرة في ملعبها"، فتوجِّه السورة خطابها للنبي ﷺ: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ﴾، ولن تجد ردًّا أروع من هذا الذي يختصر الوقت ويُفحم محترفي السفسطة، فبدلًا من طلب المناظرة للتحقُّق من صدق التوراة والقرآن، يكون الحل بطيّ هذه

الكتب، ومطالبة الطرف الآخر بأن يأتي بكتاب آخر أفضل منها، مع وعد استثنائيٍّ بأنهم إنْ فعلوا ذلك فسيترك محمد ما هو عليه ويلحق بهم: ﴿أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [القصص: ٤٩].

وبعدما قُلِبت الطاولة عليهم، تتابع السورة بكل ثقة: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾، وهذا منتهى ما نراه اليوم من جدل عقيم، فما هو إلا اتباعٌ للهوى، وليس بحثًا عن حق ولا محاولةً للفهم، ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠]، فجزاءُ من يختار اتباع هواه أن يُغلِق باب الهداية في وجهه، وعندئذ سترى بنفسك في هذا النوع من الجدل كيف يقلّب الجاحد بين يديه المسلّمات العقليّة والأدلّة اليقينيّة، ثم يرفع كتفيه ليقول ببساطة: لم أقتنع!

وما أروع اللفتة القرآنيّة التالية التي تكاد تلامس واقعنا مرة أخرى، إذ ينتقل الحديث إلى الذين آمنوا بالنبي ﷺ من أهل الكتاب، فتُثْني السورة على ترفّعهم عن الجدل: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

يقول بعض المفسرين إن تلك الآية تصفُ حال من آمن من اليهود والنصارى، ثم هاجمهم بعض المشركين لتركهم دينهم واتباع رسالة محمّد ﷺ، فلم يرهق المؤمنون الجدد عقولهم وقلوبهم بالجدل الفارغ، واكتفوا بالقول: "سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين"[١].

(١) المرجع السابق، ص ٨٨١.

ثم لمسة المواساة على قلب رسول الرحمة: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]، كي لا يحزن على مصير من يصرّ على إغلاق عقله، ونحن أيضًا لسنا مكلَّفين بحمل الناس على الهداية، ولم يُطلعنا الله سبحانه على ما تكنّ صدورهم من قبول أو رفض.

وختامًا: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص: ٨٧]، فلا ينبغي أن يعطّل الداعية والمُصلح مشروعه بالجدل العقيم، فهذه هي غاية خصومه، وليكتفِ برمي الكرة في ملعبهم، ثم يلتفت إلى شأنه كي ينجو بنفسه.



# الروم..
# يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا

لعـل مـن أكثـر المغالطـات التـي تطـرق سـمعك -عزيـزي القـارئ- اليـوم أن الأخلاق هي مبـدأ الـدين ومنتهـاه، فـلا تـزال تـرى هـذه الفكـرة المسـتوردة تُكـرَّر هنـا وهناك حتى يذبل في نفسك شأن العقيدة والعبادة، ويعلو عندك مقام السـلوك الحسـن حتى يناهز مرتبة الخلاص، فلا تنتبه إلا وأنت تتساءل: كيف أصبح الإنسان هو محور الوجود؟ ومتى كانت معاملتي للناس أهمّ وأولى من علاقتي بالله؟!

قد يكفيك للرد على هـذه المغالطـة قليـلٌ مـن النظـر في حـال مـن يردّدهـا، فلـن تجدها بين شباب يتعلّقون بالمساجد وينشغلون بـالقرآن، بـل غالبًـا في أوسـاط تحفـل بأفلام هوليود والروايات والكتب المترجمة، وربمـا ممّـن لا يفتحـون المصـاحف إلا في شهر رمضان، فلا عجب في أن يتساءل أحدهم: لماذا يدخل النـار أشـخاص طيّبـون لمجرّد أنهم لم يؤمنوا بالله؟

والـراجح لـدى كثيـر مـن العلمـاء أن مـن لـم تـبلغهم رسـالة الإسـلام بالصـورة الصحيحة، وبما يدفعهم على الأقل للبحـث عـن صـحّته، فهُـم كأهـل الفـترة ممـن لـم تبلغهم رسالة أي نبي، أما من بلغتْه الرسـالة وعـرف حقيقـة الإسـلام فقـد قامـت عليـه الحجة، وهو مُكلَّف بالإيمان والتوحيد، ثم التقيُّد بما شُـرع مـن شـعائر ومـا نُهـي عنـه من محرّمات، أما حسـن الخلـق وطيبـة القلـب وتجنّـب إيـذاء النـاس فهـي مـن جملـة أحكام شريعة الإسلام، لكنها ليست محور الدين ولا غاية الوجود.

ومعلومٌ أن هذا الخلل في ترتيب الأولويات لم يصبح ظاهرة إلا في ظلّ الثقافة الليبراليّة الغالبة، أما من اعتاد على تدبُّر نصوص الوحي فلن يجد الإجابة المقنعة فحسب، بل سيشيّد حول عقله حصنًا منيعًا يصدّ عنه تأثير المغالَطات، حتى لو لم يكُن ملتزمًا بطلب العلم.

**أولويات الحياة**

تذكّرتُ هذه الخواطر أثناء تدبّري يومًا لسورة الروم، إذ افتُتِحت السورة الكريمة بوعدٍ إعجازيٍّ غيبيٍّ بنصر الروم البيزنطيّين على الفرس في بضع سنين، وهو ما تحقّق فعلًا في عام ٦٢٩م مع أن البيزنطيين كانوا على وشك الانهيار أمام جحافل الفرس، ثم تقول السورة: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٦-٧].

أسهب المفسرون في شرح الآية الأخيرة، فما أكثر الناس الذين ينشغلون بالدنيا عن الآخرة في كل العصور، ويروى عن ابن عباس قوله: يعلمون أمر معايشهم، متى يزرعون، ومتى يحصدون، ومتى يغرسون، وكيف يبنون، وهم عميٌّ (جمع أعمى) عن أمر الآخرة.

وإذا تأمّلنا حالنا اليوم، نجد الكثير من المسلمين -فضلًا عن غيرهم- مستعدّين لتحمّل مشاقّ الدنيا، ويُربُّون أطفالهم على ضرورة بذل الجهد وسهر الليالي لتحصيل أعلى الشهادات وأفضل الوظائف، وكأن النجاح الدراسيّ والمهني هو غاية الوجود، أما الفلاح في الآخرة فيظلُّ على هامش الحياة، بل ربَّما ينشأ الأطفال على فكرة تحويل العبادة نفسها إلى وسيلة لتحسين ظروف الحياة، فيتشكّل

عقله على الاعتقاد بأنه يسعى إلى رضا الله كي يوفّقه في تحقيق أحلامه الدنيويّة، وليس للنجاح في الامتحان الذي خُلِق له.

والأسوأ من ذلك أن تجد الآخرة قد حُذِفت من الأولويات كلها، فيستميت بعض شباب المسلمين ليصبحوا نجومًا في الطرب والرقص، أو على الأقل لينالوا لقب "مؤثر" على مواقع التواصل، وقد يضحّي أحدهم بآخرته وهو يلهث وراء زيادة عدد متابعيه، بل قد يضحّي بحياته الدنيوية نفسها في سبيل التقاط صورة يبهر بها متابعيه على سطح برج شاهق، فيسقط ليلقى حتفه كما حدث في حالات عدة، وربما لو عُرضت عليه الشهادة في سبيل الله بنسبة مخاطرة مماثلة كان سيتردّد ويُحجِم.

والواقع أن معظم الناس يتململون من تكاليف الشريعة، ثم لا يجدون غضاضة في خوض تحدِّيات الحياة من أجل تحسين ظروف عيشهم، والراضون منهم برزقهم بعد ذلك قلّة، والمستعدّون لبذل مثل هذا الجهد في سبيل الآخرة أقل.

هنا تأتي الآية التالية لتصرف أبصارنا نحو ما هو أهمّ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ [الروم: ٨]، فالله لم يخلق الكون عبثًا، بل لغاية واضحة ولأجل مسمى، والغاية ليست تحسين ظروف هذه الحياة المؤقّتة. وإذا كنّا بفضل الله نعلم هذه البدهيّات، فإن كثيرًا من الناس بلقاء ربهم كافرون!

وتتابع السورة: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٩]، فهذه دعوة للسير في الأرض والتأمُّل في آثار الأمم الغابرة التي عمرت الأرض أكثر مما

عَمَرتها قريش، فالغاية ليست إعمار الأرض بالقصور وناطحات السحاب، وإنْ كان تشييد المباني وتخطيط المدن ضروريًا، ولكن ليس على حساب ما هو أولى.

ومن العجيب أن نرى اليوم انشغال الكثير من "الدعاة الجدد" ومشاهير التحفيز بالمظاهر المادّيّة لدى الحضارات الأخرى، من اليابان شرقًا إلى أمريكا غربًا، وأن يقارنوا بين تخلُّف المسلمين وتقدُّم غيرهم، من دون أن يقفوا للتأمّل في غاية الوجود عند أي طرف!

ألم يلفت نظرك أيضًا -عزيزي القارئ- انصراف كثير من المسلمين إلى الانبهار بعجائب الأهرام والمعابد القديمة، ثم لا تكاد تسمع منهم كلمة اتعاظ واحدة أمام مصير تلك الشعوب البائدة؟ مع أن القرآن يأمرنا بالسياحة للتدبّر في مصير أولئك الجبابرة، وليس الاستمتاع بالتجوّل بين خرائبهم.

**يومئذ يتفرّقون**

لم تكد هذه الأفكار تدور في رأسي حتى وقعت عيني على قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [الروم: ١٢]، ثم قوله: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ [الروم: ١٣]، وكأن الآيات تذكّرني بأن كل ما يتداوله "المجرمون" لا ينبغي الالتفات إليه، فعندما تحين ساعة الحساب ويُكشف عن البصر الغطاء، يُبلِسون ويتفرّقون، أي يصمتون وتنقطع حجّتهم، ثم يُفرَزون ويُفرَّق بينهم وبين الناجين.

ثم عدّدت السورة من آيات الله ما يصرف الذهن إلى واجب العبوديّة، بدءًا من خلقنا من تراب، ومرورًا بنِعم الزواج والسكينة واختلاف الأقوام واللغات، ونعمة

النوم في الليل والظهيرة، وبعض الآيات الكونيّة في البرق والمطر وبدء الخلق وإعادته، وكأنّ السياق ينبّه القارئ إلى ضعفه وحاجته لخالق ومدبِّر يدير شؤون هذا الكون بأدقّ تفاصيله، ليأخذه بعد ذلك إلى هذا المثال: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨]، أي هل يقبل أحدكم أن يكون غلامه (الرقيق) شريكًا له في ماله بالتساوي؟ فإن كان القرشي الوثنيّ لا يقبل مساواته بإنسان مثله، فكيف به يقبل مساواة خالقه ومدبّر شؤونه وشؤون الكون بأوثانٍ من الحجارة؟

والسؤال نفسه يتجدّد: كيف يغفل الإنسان اليوم عن حاجته لهذا الخالق المهيمن القيّوم فيساويه بأوثان المادّيّة؟ ثم يجنح إلى أقصى درجات الحماقة وينفي وجود خالقه جلّ وعلا، مدّعيًا اكتفاءه بنفسه، فضلًا عن اكتفاء هذا الكون الذي يعجّ بما لا يحصى من الكائنات بنفسه أيضًا؟

الجواب في الآية التالية مباشرة: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ [الروم: ٢٩]، وما أوضحها من إجابة! فكل هذا الهراء المتدثّر بالعلم التجريبيّ ليس سوى فرضيّات فلسفيّة، حتى لو كان من يتبجّح بالإلحاد من حَمَلَة جوائز نوبل. فالعلم شيءٌ، وتأويل المُشاهَدات الحسِّيَّة والرياضيّة بفرضيّات تُوافِق الهوى شيءٌ آخر. وما أصعب إقناع من يزعم أنّ إلحاده هو عين العلم، فمَن يُهدِي من أضلّ الله؟!

وقبل أن أسترسل في التفكير، عاجلتْني الآية التالية لضبط البوصلة: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ

ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٢٩]، فهذا هو المطلوب، أن أستقيم على الفطرة التي يشاركني فيها كلّ الناس، مع أنّ أكثر هؤلاء الناس "لا يعلمون". ولا يضرّني عدم علمهم واقتناعهم وانقيادهم للفطرة والعقل، بل تكفيني مقولة علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "اعرف الرجال بالحق، ولا تَعْرف الحق بالرجال."

يستمرّ دفق هذا الحوار اللذيذ مع آيات الله، فتصف إحدى تلك الآيات الكاشفة الضالين بأنهم: ﴿فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًاۖ كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢]، وكأنها تمنحني المزيد من الطمأنينة، فأتباع الفرق والأديان والتيارات المتضاربة فرّقوا الدين بأنفسهم، ثم بات كل حزب منهم فرِحًا بما ابتدع. والمعيار بسيط، إذ يكفي أن يُصاب أحدهم بابتلاء حتى يخضع، فتقول الآية التالية: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٣].

إذن فالحق الموافق للفطرة لا يحتاج غالبًا إلى نقاش منطقيٍّ وحجاج فلسفيٍّ، بل إلى مصيبة تضرب قلب المتمرّد لتُلزِمه بالخنوع. لذا ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، فالغاية ممّا نعانيه هي أن نرجع، أن نتبصّر ونتوب ونقلع عن التمرّد.

لكن الجحود يصبح عادة لدى من خُتم على قلبه، ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ [الروم: ٥٢]، وهكذا إلى أن يحين موعد الحساب: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥]،

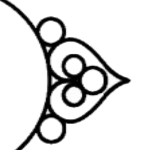
وكأنّ كل هذه الحياة المديدة التي كانت محور اهتمامهم قد مرّت في خواطرهم بعد البعث كساعة من نهار، فيأتيهم الجواب ممن أفنوا أعمارهم في الطاعة بدلًا من العَبَث والجَدَل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٦].

فتخيّل عزيزي القارئ صدمة من كان جلّ اهتمامه في الحياة جمع المال واكتساب الألقاب، ودع عنك الآن الطواغيت الذين قتلوا العباد وأفسدوا البلاد، فكيف به وهو يخرج من قبره وينفض التراب عن رأسه، ويهرول مذعورًا، حافيًا عاريًا، وهو يصرخ بالأيمان المغلّظة: "ما لبثتُ غير ساعة"؟ ويتوسّل طالبًا العودة وإعادة الاختبار؟ وكيف به وهو يرى من كان يحتقرهم ويسخر منهم يجيبون: "هذا يوم البعث ولكنك كنت لا تعلم"، فالفرصة انتهت، وطريق العودة انقطع.

لا بدّ أنه سيواصل الجدل، وسيقسم المزيد من الأيمان ويقطع العهود، ولكن هيهات، ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم: ٥٧]. فالأدلّة كانت كافية لمن يريد أن يعقل ويتدبّر: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٨، ٥٩].

وتأمّل معي هذه الآية الخاتمة: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، واستشعر بَرْدَ الطمأنينة وهو يهبط على قلبك، فكل ما سبق من جحودهم لن يضرّك، ولا ينبغي أن تحملك شبهاتهم على الخفّة والطيش والانحراف.

وإن وقعتْ عينك مجددًا على التفاوت المادِّيِّ الهائل بين المؤمنين وأهل الدنيا، فذكّر نفسك مجدَّدًا بأنهم: "يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا"، وأن كل ما بلغوه ليس سوى "الظاهر" من مرحلة عابرة. ولا تسمح لليأس بأن يتسلّل إلى قلبك، فتغيير موازين قوى الأمم ليس في متناول يدي ولا يدك، ولسنا مسؤولين في الآخرة إلا عن اجتهادنا بقدر المستطاع.




# فُصِّلت.. عندما عاد عتبة بن ربيعة إلى قريش بغير الوجه الذي ذهب به!

سجَّلتْ لنا كتب السيرة قصصًا عجيبة لبعض النقاشات التي دارت بين كبار المشركين والنبي ﷺ في صدر البعثة، ولعل أكثرها لفتًا للنظر وحثًّا للتأمّل هي قصّة عتبة بن ربيعة، وسأسردها لك -عزيزي القارئ- كما جاءت في سيرة ابن هشام، ثم أدعوك لمشاركتي في التدبّر.

روى ابن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي قال: حُدِّثْت أن عتبة بن ربيعة -وكان سيِّدًا- قال يومًا وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلّمه؟

فقالوا: بلى يا أبا الوليد، قم إليه فكلّمه، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي؛ إنك منّا حيث قد علمتَ من السِّطَة[1] في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرَّقت به جماعتهم، وسفّهت به أحلامهم، وعِبت به آلهتهم ودينهم، وكفّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلّك تقبل منها بعضها.

قال: فقال له رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمع.

قال: يا ابن أخي إن كنتَ إنما تريد بما جئتَ به من هذا الأمر مالًا، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد به شرفًا سوّدناك علينا، حتى لا

(١) السطة: الشرف والمكانة.

نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به مُلكًا ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رِئيًا تراه لا تستطيع ردّه عن نفسك، طلبنا لك الطبّ وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه أو كما قال له. حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاسمع مني، قال: أفعل.

قال: بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ ﴿حمٓ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فُصّلَتْ: ١–٥]، ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرأُها عليه، فلمّا سمعها منه عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمِدًا عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها؛ فسجد، ثم قال: قد سمعتَ يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك.

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلمّا جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولًا والله ما سمعتُ مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكوننّ لقوله الذي سمعتُ منه نبأ عظيم، فإن تُصِبْه العرب فقد كُفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فمُلكه ملككم، وعزّه عزّكم وكنتم أسعد الناس به.

قالوا: سحَرَك والله يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم.

وفي رواية أخرى للقصة نفسها، ذكرها ابن كثير في "البداية والنهاية"، أضاف عتبة إلى عرضه خيار الرغبة في النساء، فقال: وإن كان إنما بك الباه فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوّجنّك عشرًا.

وروى البيهقي هذه القصة أيضًا وزاد عليها أن عتبة عندما عاد إلى قومه قال لهم إنّ النبي ﷺ قرأ عليه من بداية سورة فصلت حتى بلغ: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]، ثم قال عتبة: فأمسكتُ بِفيه وناشدته الرحم أن يكفّ، وقد علمتم أن محمّدًا إذا قال شيئًا لم يكذب، فخفت أن ينزل عليكم العذاب.

**سحَرَك يا أبا الوليد**

هنا تنتهي القصة، ويبدأ التفكر في روعتها، إذ قدّم لنا النبي ﷺ درسًا عظيمًا في الاستماع حتى النهاية: "أقد فرغت يا أبا الوليد؟"، ثم درسًا أبلغ في الاكتفاء بالردّ من الوحي المنزل من رب العباد، بدون إضافة كلمة واحدة.

لاحظ أيضًا -عزيزي القارئ- أن عتبة كان يُخفي في طيّات خطابه المهذّب اتهامات ثقيلة، إذ لم يضع في كل الاحتمالات التي سردها احتمالًا واحدًا لصدق النبي ﷺ، بل افترض من البداية أنه طالِب مالٍ أو سيادة أو ملك أو نساء، وفي أحسن الأحوال مصابٌ بمسٍّ من الجن. ومع ذلك، لم يغضب النبي ﷺ، ولم ينتصِر لنفسه، ولم يبدأ بتفنيد تلك التُهم مبرزًا الشواهد على زهده في الدنيا، ولم يتباكَ أو يشتكي من خذلان قومه له، بل اكتفى فقط بتلاوة ثمانٍ وثلاثين آية متوسّطة الطول، وهي لا تتجاوز ثلاث صفحات ونصف الصفحة من المصحف المتداول اليوم. أما في الرواية التالية فكل ما قرأه هو صفحة واحدة فقط.

والسؤال الذي لا بد أنك قد بدأتَ تشاركني به: أيُّ "سحرٍ" هذا الذي أحدَثْته تلاوة آيات من القرآن الكريم على أحد سادة قريش، حتى صنَعَت في أعماقه هذه النقلة الهائلة، من مفاوضٍ يستبعدُ عن عدوّه احتمال الصدق، إلى متعاطفٍ يدافع عنه؟ وكيف زلزلت هذه الآيات قلب رجل سياسيٍّ محنّك في دقائق، حتى عاد إلى قومه "بغير الوجه الذي ذهب به"؟!

لن نبلغ الجواب حتى نقرأ تلك الآيات معًا بعين عتبة، ونحاول تقمّص شخصيّته، وكأننا نسمعها للمرة الأولى. لذا سأسرد لك -عزيزي القارئ- تلك الآيات تباعًا، ولنتخيّل بعد كل منها ما الذي كان يدور في خلد عتبة:

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، يبدو استهلالًا عجيبًا بدون مقدمات، فالعرب كانت تعبد الله وتُشرك معه الأصنام، لكن الثناء عليه بصفات الرحمة لم يكن مألوفًا من قبل[1].

﴿حمٓ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، حرفان بلا معنى ظاهر، ومؤشّرٌ آخر على أن محمَّدًا يأتي بكلام غير مألوف، ثم يقرّ إقرارًا مباشرًا بأنّه تنزيل لا شأن له به، ومن الرحمن نفسه أيضًا.

﴿كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾، هو كتابٌ إذن، ليس بشعرٍ ولا يشبه في نظمه كلامَ العرب، ومع ذلك هو قرآن -أي يُقرأ- بلسان العرب، ويختصّ بمن يعلم ويفهم!

(١) عندما صالح النبي ﷺ المشركين في صلح الحديبية، قال لعليّ اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل بن عمرو (سفير قريش): أما باسم الله فما ندري ما بسم الله الرحمن الرحيم، ولكن اكتب ما نعرف: باسمك اللهم. [رواه مسلم]

﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾، ابتدأ بالبشرى قبل النذير، وأنكر على قريش إعراضهم، ثم أحرج عتبة بدفعه إلى الإصغاء كي لا يكون في فئة "الذين لا يسمعون".

﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾، إحراج آخر لعتبة وهو يستحضر صورة أصحابه في إصرارهم على عدم السماع، فالقلوب مغلّفة، والآذان صماء، وبينهم وبينه حجاب شامل يمنع التواصل بالجملة. ولا مخرج من هذه الصورة القبيحة سوى بالإصغاء لمحمّد ﷺ.

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾، تواضعٌ عجيب ينسف كل أوهام عتبة، فالتفاوض ليس مع طالب مال ولا سلطة، بل مع رجل يصر على أنه بشر مثلهم، وأنه مبلّغ فقط بما يوحى إليه، أما رسالته فهي توحيد الله والاستقامة في طاعته واستغفاره عما سلف، مع تهديد صريح لمن يُعرض.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾، موازنة سريعة لكامل الصورة، وبيانُ أجر من يقبل العرض.

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾، آيات عجيبة ومدهشة للغاية، وهي تقرع سمع

رجل حكيم مثقّف، فأساطير العرب في الجاهلية لم تكن تهتمّ كثيرا بنشأة الوجود، وهاهو عتبة يسمع للمرة الأولى عن خلق الأرض في يومين، ثم تشكيلها وتهيئتها للحياة في أربعة أيام، ثم تخليق السماوات السبع من دخان، وبث الكواكب والنجوم والشهب فيها.

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾، هنا كانت الرهبة قد أخذت بقلب عتبة كل مأخذ، ولم يتدارك نفسه إلا وهو يمسك بفم النبي –كما في الرواية الثانية– ليناشده أن يوقف التلاوة، وكأنه يقر بصحّة نبوّته مع الإصرار على عدم اتّباعه. والظاهر أن العرب كانوا يعرفون مصير أسلافهم ممّن هلكوا في جزيرة العرب، ويعرفون أيضًا سبب إبادتهم: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

وإذا تابعنا الآن سرد الآيات كما في الرواية الأولى، وصولًا إلى آية السجدة، فسنجد تفصيلًا رهيبًا لهلاك عاد وثمود: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾، ولا شيء أبلَغ من هذا الوصف بكل ما يتضمّنه من تهديد مباشر.

﴿ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾، وبعد كل تهديد ووعيد ونذير، تأتي البشرى لإعادة التوازن.

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾، هنا يبدأ مشهد غير مألوف في عقل عتبة، فالعرب كانت تنكر البعث جملة واحدة، بل كان البعث أشد نكارة في عقولهم البسيطة من توحيد الله وتنزيهه عن الشرك، وهاهو مشهد البعث يتجسّد أمام خيال عتبة كاشفًا عن حوار عجيب، طرفُه الثاني هو أعضاء الجسد نفسه بعدما أعيد خلْقه.

﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾، صدمات متتاليات تنهال على رأس عتبة، فبعد إنذاره بصاعقة مُهلكة تقضي على الحياة في هذه الدنيا، يحاول عقله الآن استجماع قوّته للاقتناع بوعيد البعث بعد الهلاك، ثم يتصوّر هولَ الموقف بعد البعث، واكتشافَ تَحوُّلِ الجسد نفسه إلى خصم ينطق بالشهادة التي تُدين صاحبه.

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴾، وماذا بعد اكتشاف تحوّل الجسد نفسه إلى خصم في المحكمة؟ الوعيد بالنار هو النتيجة.

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴾، هنا يكتشف عتبة معلومة جديدة أيضًا، فالعرب كانوا يؤمنون بالجن ويمارسون السِّحر بكثرة، بل كانوا يُضفون على الشياطين بعض صفات الألوهيّة، وهاهو القرآن يكشف لعتبة الآن أن من هؤلاء الشياطين قرناءَ يرافقون البشر للوسوسة وتزيين الباطل، وأن العقوبة ستطال الجميع عندما يحين الحساب.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾، عـودة أخـرى لوصف موقف المشركين من هذا البيان، ففي الآية الخامسة بدأ العتاب والتقريع: "وقالوا قلوبُنا في أكنَّة"، ثم طافت الآيات بعتبة في هلاك عاد وثمود، وفي ما سيلقاه المعرضون من أهوالٍ بعد البعث، وعادت لتضعه أمام سلوك أصحابه الذي لا يليق إلا بالسفهاء، إذ لم يقتصر الأمر على إعراضهم كما في الآية السابقة، بل تجاوز فجورُهم إلى صدِّ الآخرين عن الاستماع للقرآن، وحتى رفعِ أصواتهم بالصياح والصفير والمشاغبة لمنع النبي عن تلاوة القرآن كلما أراد أن يبلغهم إياه. فياله من موقف، وهاهو عتبة يسمع هذا الوصف المشين في جلسة مفاوضات هادئة، فلا يملك أن يشاغب، ولا يجد بدًّا من الإنصات والصمت.

﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِۖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾، ويياله من وعيد مُفزعٍ، بعد تقريعٍ مُلجِم!

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ﴾، بعد كل ما طرق سمعَ عتبة من وعيد، تبدأ الانفراجة الآن بمدّ يد النجاة، لتنزع الخوف والحزن عن قلب عتبة وتبشّره بالجنة إن هو آمن واستقام. وقد كان العرب يؤمنون بالملائكة ويبجّلونهم، بل كانوا يطلقون عليهم صفة "بنات الله" جلّ وعلا، وفقًا لما جاء في سورة الزخرف: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ

إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: ١٩]، فلن يجد عتبة مشقّة في تصوّر تنزُّل الملائكة على المؤمنين في الجنّة.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، هنا ينتهي البلاغ، فبعد كل ما سمعه عتبة من وعيد وبشرى، سينصت الآن إلى المنهج الذي يلتزم به النبيّ ﷺ في دعوته، وكأنّي به يستحضرُ عروضه الساذجة التي وضعها على طاولة المفاوضات، من مال وسلطة ونساء، وهو يستمع الآن في ختام الردّ المفصّل إلى ثناء الله تعالى على رسوله، وعلى كل من يدعو إلى الله ويعمل صالحًا ويعلن أنه مسلم.

﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾، ما أظنّ عتبة إلا علتْه القشعريرة هنا، وقد أسقِط في يده، فمن يملك الردّ على هذا البيان المعجِز في الحسْن والبلاغة؟ وما تراه يقول لمن ذهب إليه بنفسه ليفاوضه على ترك دعوته فإذا به يردّد على مسامعه: "ولا تستوي الحسنة ولا السيّئة"؟ بل كيف سيمسح عرق جبينه وهو يصغي إلى مقولة خصمه الرافض لكل التنازلات: "ادفع بالتي هي أحسن"؟ ثم كيف سيخاطبه بعد الآن إن كان هذا الخصم يمد له جسور المودّة قائلًا: "فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم"؟

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، وكأن النبيّ ﷺ يبيّن له هنا أنها منزلة عالية لا تليق إلا بأهل العزائم.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، فحتى الصابر وذو الحظ العظيم قد يوسوس له الشيطان عندما يلقى إساءة من عدوّه، فيأتي التذكير هنا من الله السميع العليم بضرورة الاستعاذة به.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، بعدما استمع عتبة إلى قصة خلق السماوات والأرض، وبلغتْ سمعَه كلماتُ الخالق مباشرة على لسان رسوله، يستمع الآن إلى هذه الانعطافة للتذكير بآيات الخالق في تَعَاقُبِ الليل والنهار، ثم يطرق أذنيه هذا الأمر الإلهي الصارم بمنع السجود للشمس والقمر وتوحيد العبادة لله. ومع أن قريشًا لم تشتهر بعبادة الأجرام السماوية، إلا أنها كانت -كبقية العرب- تعتقد أن الشمس والقمر لا يُكسَفان إلا لموتِ عظيم، وعبادةُ الشمس كانت شائعة في اليمن أيام سبأ، ثم ظلّت آثارها في بعض قبائل العرب، مثل بني تميم وضبة وتَيْم وعُكْل وأُدّ، حتى سُمي بعضهم "عبدَ شمس"، بل كان هذا هو اسم جدّ عتبة نفسه، كما كان بعض كنانة يعبدون القمر.

﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾، وهذا تمام التكليف، فقد تمّ البيان، وبُلّغت الرسالة، وأُقيمت الحجّة، وأدّى الرسول ﷺ الأمانة، وأخبر عتبة بأنه إن أصرّ على الاستكبار فإن عددًا لا يحصيه إلا الله من الملائكة العظام لا يفتُرون عن العبادة تسبيحًا وسجودًا وتنفيذًا لأوامره.

ثم أهوى النبي ﷺ على الأرض ساجدًا، منقادًا بكامل عبوديّته للأمر الإلهي: "واسجدوا لله الذي خلقهن"، وعتبة لا ينبس ببنْت شفة.

اعتدل النبي ﷺ جالسًا، ولم يزد على ما ردّده من كلمات الله جل وعلا إلا قوله: "قد سمعتَ يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك".

**انهيار المفاوضات**

تخيّل معي عزيزي القارئ المشهد الختامي، عتبة الذي جاء مفوَّضا من سادة قريش، والذي طرح على النبي عروض المال والجاه بكل ثقة، يقوم الآن من مجلسه صاغرًا وعاجزًا عن النطق، يجرّ قدميه محمّلًا بالخزي، والأفكار تصطرع في عقله، أيُعلن إسلامه بين يدي هذا الرجل المؤيَّد بالمعجزات، فيسْخَر منه قومه ويخْسر كل شيء؟ أم يعود إليهم -وهم يتحرّقون في مجلسهم شوقًا إلى عودته- ليخبرهم أنه فشل في المهمّة؟

قد ذكرتُ لك عزيزي القارئ تتمة القصة، لكن قراءتك للخاتمة الآن ستملأ قلبك بنشوة أخرى، فتأمل معي:

قال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولًا والله ما سمعتُ مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكوننّ لقوله الذي سمعتُ منه نبأ عظيم، فإن تُصِبْه العرب فقد كُفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فمُلكُه ملكُكم، وعزّه عزّكم، وكنتم أسعد الناس به.

قالوا: سَحَرَك والله يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم.

أستحلفك بالله، إن لم تكن عينك قد دمعت، أو انتابتك قشعريرة على الأقل، أن تعيد قراءة السطور السابقة مرة أخرى.

وتذكّر كلما رفعتَ رأسك من سجدة التلاوة في سورة "فصّلت"، أن تحمد الله على أن هدانا إلى الإسلام من غير أن نسأله الهداية، ومن دون أن نرى رسوله ﷺ، وأن نسمع القرآن يُتلى على لسانه، وتذكّر أن عتبة كان على بعد خطوة واحدة من النجاة، إلا أنه أبى، فالحكاية لم تنتهِ بعد.

### طبول الحرب

لم تكن قصة عتبة -سالفة الذكر- مجرَّد مبادرة عابرة خطرت على باله في جلسة سمَر مع علْية القوم، بل كانت محاولة أخيرة من قريش لاحتواء "الفتنة" التي قضّت مضاجعهم، فمحمّد يزداد نفوذًا، وحمزة وعمر بن الخطّاب أعلنا إيمانهما بما جاء به، مؤذنَين بانقلاب موازين القوى في مكة كلها، إذ لم تعد الدعوة الجديدة مقتصرة على الضعفاء والعبيد، بل باتت تستقطب الفرسان والأشراف أيضًا، لتهدّد ببدء تاريخ جديد ينسف كلّ ما تراكم لدى قريش، سيّدة قبائل العرب، من أعراف سياسيّة ودينيّة راسخة.

وفي ظل هذا الاحتقان، يمكنك عزيزي القارئ إدراك الكارثة التي حلّت بقريش عندما رجع إليها عتبة "بغير الوجه الذي ذهب به"، فاستماعه لثمانٍ وثلاثين آية فقط من سورة فصّلت كان كفيلًا بانهيار المفاوضات، ممّا دفع أبا طالب عمّ رسول الله ﷺ لاستباق الأحداث قبل أن يهمّ القوم بقتل ابن أخيه، فأطلق نداءً عاجلًا في بني عبد مناف -الفرع الذي يتحدّر منه النسب الشريف من قريش- ودعاهم إلى إعلان حماية ابنهم محمّد ﷺ، فاستجاب القوم للنداء بدافع الحميّة.

دارت عجلة الزمن، وازداد التضييق على النبي ﷺ ومن آمن معه، فهاجروا إلى المدينة المنورة، ثم جاء موعد الصدام الذي لا بد منه، عندما خرج المسلمون في طلب قافلة أبي سفيان القادمة من الشام، ووصل النبأ إلى مكة، فخرج عتبة بن ربيعة مع فرسان قريش لحماية القافلة، ولما بلغهم خبر نجاتها كان المعسكران قد بَدَآ برصّ الصفوف في بدر.

بدأت قريش بدقّ طبول الحرب، أما عتبة فكان يُغرّد خارج السرب، إذ رآه النبي ﷺ من بعيد وهو على جمل أحمر يخطب في قومه: يا قوم أطيعوني في هؤلاء القوم، فإنكم إن فعلتم لن يزال ذلك في قلوبكم، ينظر كل رجل إلى قاتل أخيه، وقاتل أبيه، فاجعلوا حقّها برأسي وارجعوا. فقال النبي ﷺ: "إن يكن عند أحد من القوم خير، فهو عند صاحب الجمل الأحمر، إن يطيعوه يرشدوا".

لم يفلح عتبة في إقناع قريش، وتروي لنا كتب المغازي ملاسنةً لاذعة فاحشة بينه وبين أبي جهل، إذ صاح الأخير بأعلى صوته: "لا والله لا نرجع حتى نرِد بدرًا، فنعسكر فيه، وننحر الجزُر ونطعم الطعام، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا بعدها"، وارتفع الهتاف تأييدًا لأبي جهل.

وقُبيل المعركة، برز الفرسان من الطرفين لمبارزات فردية، فدعا الصحابي أبو حذيفة بن عتبة -الذي كان مسلمًا- أباه عتبة للمبارزة، لكن النبي ﷺ نهى أبا حذيفة عن مبارزة أبيه، فخرج عتبة وتبارز مع الصحابي عبيدة بن الحارث حتى جرحه، ثم هبّ عليّ بن أبي طالب وحمزة بن عبد المطلب لنصرة عبيدة، وكان نزالًا شديدًا

يحبس الأنفاس بين أشهر فرسان العرب، وسقط عتبة أخيرًا أمام عيون قومه الذين أصرّوا على إيراده التهلكة، بينما صدحت أصوات المسلمين بالتكبير.

وما هي إلا ساعة حتى حمي وطيس المعركة، وسقط في صفوف المشركين سبعون قتيلًا، واحدًا تلو الآخر، وكان منهم عقبة بن أبي معيط، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة -وهما أخو عتبة وابنه- ولحق بهم "فرعون هذه الأمة"، عمرو بن هشام، الذي سمّاه المسلمون أبا جهل، فخرّ صريعًا بسيفَي غلامين حدَثين، ثم أجهز عليه عبد الله بن مسعود. وانتهت بذلك قصة كبار فرسان قريش، وانقلبت موازين الإسلام والكفر من بعد هذه الواقعة.

لم يكن أبو حذيفة الوحيد الذي أسلم من أبناء عتبة، بل أسلم أيضًا إخوته أبو هشام وأمّ أبان وفاطمة، وحتى هند بن عتبة التي كانت زوجة أبي سفيان، والتي هَجَتْ أخاها أبا حذيفة عندما أراد مبارزة أبيه في بدر، أسلَمتْ هي أيضًا مع زوجها بعد فتح مكة.

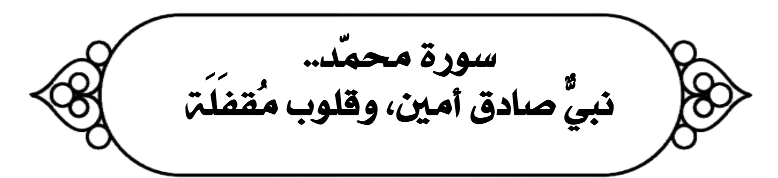
أفكار كثيرة تراودني وأنا أتأمّل هذه القصة بتفاصيلها العجيبة، إذ لم تعصم الحكمةُ عتبةَ من الهلاك على الكفر، ولم ينتفع بكل ما رأى من آيات معجزات، وما زلنا نرى شبابًا وشابّات في عصرنا نشأوا على الإيمان والصلاح، وربما حفظوا القرآن كاملًا في صدورهم، ثم نكصوا على أعقابهم واختاروا الكفر على الإيمان.

عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثًا، ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم، فقال: (يا أبا جهل بن هشام، يا أُميّة بن خلف، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن

ربيعة، أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟ فإني قد وجدتُ ما وعدني ربي حقًّا). فسمع عمرُ قول النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، كيف يسمعوا وأنى يجيبوا وقد جيّفوا؟ قال: (والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا)، ثم أمر بهم فسُحِبوا، فأُلقُوا في قليب بدر [رواه مسلم في صحيحه].

ليت شعري ما صنع عتبة بهذه الآية، وهي آخر ما سمعه من فم رسول الله ﷺ: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ﴾؟

لكنّه لا يقدِر أن يجيب.



# سورة محمّد.. نبيٌّ صادق أمين، وقلوب مُقفلَة

قبل أن أبدأ التدبّر في سورة محمّد، كان أول ما لفت نظري أنها لم تضمّ اسم النبي محمّد ﷺ إلا مرّة واحدة في مطلعها، ولم تُشر إلى نسبه الشريف، ولم تذكر شيئًا عن معاناته مع خصومه، ولا عن مزاياه ومناقبه ومعجزاته.

وخيّل إليَّ أني لو كنت حاقدًا جاحدًا، وجئت أبحث في المصحف عن أدلة تثبت "تزييف" هذا النبيّ له، فسأبدأ بالسورة التي تحمل اسمه فورَ أن ألمحها في فهرس السور، متوقِّعًا أن أجد فيها أوامر لأتباعه بالطاعة العمياء، وتعدادًا لمعجزاته الباهرة، وتمجيدًا لأخلاقه وإنجازاته، ووعدًا بنصره ودخوله تاريخ العظماء إلى الأبد. فهذا ما يفعله كل المتنبّئين الدجاجلة، وما نراه حتى اليوم لدى زعماء الطوائف الدينيّة المغلقة.

لكن السورة لم تتضمّن شيئًا من هذا، بل كانت أيضًا أقصر من معظم السور الأخرى التي سُمّيت بأسماء بعض الأنبياء، فآيات "سورة محمّد" في المصحف لا تمتد لأكثر من أربع صفحات، وهي أطول من سورة نوح، لكنها أقصر من سور يونس وهود ويوسف وإبراهيم، وأقصر أيضًا من سورة حملت اسم لقمان، الذي كان حكيمًا لا نبيًّا.

ومع أن لدينا سورتين أخريين تحملان ألقابًا لهذا النبي الذي أُنزِل عليه القرآن، وهما المزّمّل والمدّثّر، فهما على قصرهما تتضمّنان وصايا له في الدعوة، ولم أجد

فيهما أيّ مدح أو تعظيم، أو حتى وعد بالنصر والتمكين والاكتساح، مع أنهما نزلتا في بداية الرسالة، وهي الفترة التي يتبجّح فيها أدعياء النبوّة المزيّفون بالوعود الكبرى والأحلام العريضة لحشد الجماهير.

أما "سورة محمّد"، التي أنزلت في المدينة المنورة بعد الهجرة ووضع بذرة الدولة الجديدة، فتتميّز عن بقيّة سور الأنبياء السابقين بتعداد أصناف أعداء هذا النبيّ، فبينما كان السابقون -عليهم الصلاة والسلام- يواجهون صنفًا واحدًا من الكفّار، وهم غالبًا من المشركين عبدة الأوثان، أو المحرّفين للوحي من بني إسرائيل، فإن النبيّ الخاتم ﷺ ابتُلِي بمواجهة كلّ أصناف الكفر، بدءًا من المشركين الوثنيّين والدّهريّين ومنكري النبوّة، ومرورًا بمحرِّفي الوحي من أهل الكتاب، والمنافقين الذين يظهرون الولاء ويتآمرون مع العدو، ووصولًا إلى المرتدّين للكفر بعد الإسلام. ولكلٍ من هؤلاء خطابه وحجاجه وطريقته في التمرّد، فكان لا بدّ من سُبُل مختلفة لدعوة كل فريق، ثم لمجاهدة العدوّ المحارب منهم.

**أعداء محمّد**

استهلّت السورة بالتمييز بين فريقين شاملين: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾. [محمد: ١ و٢]، وما أوضحه من تمايز، فهناك الكافر الذي يتعدّى كفره إلى محاربة الإسلام -ولو بكلمة- فهو موعود بإحباط العمل كله، وهناك المؤمن الذي يُتبِع إيمانه بالعمل الصالح، فهو موعود بتكفير العمل السيّئ وصلاح الشأن.

وسبب التمايز في غاية الوضوح: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ ﴾ [محمد: ٣]، فالأمر كلّه يتعلّق بتمايز الحق عن الباطل.

تتحدّث السورة بعدها مباشرة عن طريقة التعامل مع المشركين، فبعد الهجرة انتقل الصراع من طاولة النقاش إلى ميدان الحرب: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ ﴾ [محمد: ٤]، مع وعد للشهداء الذين تصدّوا لهؤلاء بالجنة: ﴿ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ﴾ [محمد: ٦].

وممّا لفت نظري أن السورة بعدما وصفت الكفار باتباع الباطل والصدّ عن سبيل الله، ذكرت أن سبب هذا الانحراف الموجب للعقاب هو كرههم لمّا أراده الله منهم، أي أنّه دافع نفسي مسبق، فقالت في آية موجزة: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ [محمد: ٩]، ولاحظ عزيزي القارئ كيف تكرّر الوعيد بإحباط العمل.

وكما درجت العادة في القرآن الكريم، فبعد آيات الوعيد للكفّار تأتي آيات البشرى للمؤمنين، وهو أسلوب تربويٌّ لافت يقرن الترغيب بالترهيب ليبقى التوازن مستقرًّا في نفس القارئ. لذا عدّدت السورة بعدها أصنافًا من النعيم المُنتَظَر في الجنّة: ﴿ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ ﴾، وتختم الآية نفسها بما ينتظر الطرف المقابل من عذاب: ﴿ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ﴾ [محمد: ١٥].

ثم تصرف السورة أنظارنا إلى صنف آخر من الكفار: ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ

﴿قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ [محمد: ١٦]، وهؤلاء هم المنافقون، وقد أوجِزت الصورةُ بالتقاط هذا المشهد من نفاقهم متمثِّلًا في الجهل، فكان بعضهم يسمعون القرآن من فم النبي ﷺ ثم يخرجون ليسألوا علماء الصحابة كابن عبّاس وابن مسعود عما سألوه، إما سخريةً، أو لبلادتهم وضعف عقولهم، فهم لا يسألون ليتعلّموا ولا ليفهموا، بل "طبع الله على قلوبهم".

ومن آيات المنافقين أيضًا خوفهم من الموت، لا سيّما إذا كان في سبيل الله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ [محمد: ٢٠]، وهذا يشبه ما نراه ونسمعه في عصرنا، ففي بعض المناطق التي فُرِض فيها على الناس حمل السلاح للدفاع عن أنفسهم، قد تسمع بعض المثقّفين يصرّحون بأنهم لا يريدون الشهادة، بل يفضّلون اللجوء إلى أوروبا. والآية التالية تردّ بغاية الوضوح: ﴿طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ [محمد: ٢١].

ومع أنّ الآيات التي وصفت انغلاق القلوب والختم عليها ليست قليلة في القرآن، لكن الرسالة التالية لا بد أن تستوقفك عزيزي القارئ وتمسّ قلبك، فبعدما وصفت السورةُ المنافقين بأنهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ﴾ [محمد: ٢٣]، سألتْ في الآية التالية: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، وكأنّها تسأل المنافق لتُحرجه: هل تتدبّر القرآن؟ فإن زعم أنه يفعل -وهو كاذب- فتسأله مجددًا: أليس قلبك مُقفلًا إذن؟

في الآية التالية نتعرّف على صنف آخر، وهم الذين ارتدُّوا عن الهدى بعدما عرفوه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ﴾ [محمد: ٢٥-٢٦]، واللافت أنّ انحرافهم بدأ بالخيانة والتعاون مع الأعداء، فعرضوا خدماتهم على اليهود، وكان مصيرهم الردّة عن الإسلام بالجملة.

ولعلّك تستحضر هنا عزيزي القارئ نماذج كثيرة لهذه الخيانة في عصرنا، والتي آل أصحابها إلى مصير مشابه، فانتكسوا إلى الكفر بعد الإيمان، أو ما زال بعضهم يضمر من النفاق ما لا يخفى.

والكراهية حاضرة في كل الحالات، فالمشركون "كرهوا ما أنزل الله" كما رأينا في الآية التاسعة، واليهود "كرهوا ما نزّل الله" كما رأينا في الآية السابقة، والمرتدّون أيضًا كرهوا رضوان الله كما في التالية: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [محمد: ٢٨].

من اللافت أيضًا أنّ النفاق لا يبقى حبيس القلوب، بل نرى وعدًا إلهيًّا للنبيّ بأن تفضحهم ألسنتهم: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ [محمد: ٣٠]، ولا يعطينا هذا مبرِّرًا لرمي الناس بالنفاق جزافًا، إلا أنّه يكفي للردّ على ما نسمعه اليوم من محاولات هدم الإسلام بمِعول التأويل، فما أكثر المثقّفين الحداثيّين الذين يجاهرون بلوازم الكفر، وظاهرُهم النقد والتجديد والإصلاح الدينيّ، ولا يميّزهم عن الملاحدة سوى الإصرار على إعلان بقائهم في إطار الإسلام.

كان الصحابة يعرفون بعض المنافقين ويصفونهم ويتناقلون نعتهم فيما بينهم، فهذا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول "ولو أنكم صلّيتم في بيوتكم كما يصلّي هذا المتخلِّف في بيته لتركتم سنّةَ نبيكم، ولو تركتم سنةَ نبيّكم لضللتم... ولقد رأيتُنا وما يتخلّف عنها إلا منافقٌ معلوم النفاق"[1]، وهذا كعب بن مالك يتحدّث عن قصة تخلّفه عن الغزو ثم توبته، فيقول "فكنتُ إذا خرجتُ في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم، أحزنني أني لا أرى إلا رجلًا مغموصًا عليه النفاق، أو رجلًا ممن عذر الله من الضعفاء"[2]، أي أن بعض المنافقين كانوا معروفين بنفاقهم بين الصحابة، ولا شكّ في أن ذلك لم يكن اعترافًا من المنافقين أنفسهم، كما لم يكشف النبيّ ﷺ أسماءهم إلا لحذيفة بن اليمان واستأمنه عليها.

### أصحاب محمّد

بعد هذا التطواف في أحوال الكافرين، تشدّ السورة على أيدي من آمن مع الرسول، وتطالبهم بالثبات والأخذ بالعزيمة: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥ و٣٦]، فرسالة الإسلام متوازنة في الوعد بالجنة في الآخرة، وفي الوعد بالنصر والتخفيف في الدنيا، من دون إطراق إلى الدعة والراحة، بل يذكّرنا الله بحقيقة هذه الحياة، فما هي إلا لعب ولهو، ومرحلة عابرة للاختبار، يليها الجزاء ثم الراحة لمن اجتهد.

والخاتمة تستحقّ وقفة أخرى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ

(١) مسلم: ٦٥٤

(٢) البخاري: ٤١٥٦

﴿قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨]، إذ أجد نفسي مضطرًّا للمقارنة مع خطاب أدعياء النبوّة وزعماء الطوائف المُغلَقة في هذا العصر، فلا أحد منهم يستقطب معجبيه ومريديه بمثل هذه الرسالة الواضحة في تسليم الأمر لله وإخراجه من يد الداعية، ولو كان النبيّ ﷺ يريد الزعامة لنفسه لَوَعدهم بالنصر والسيطرة والاستحواذ على ما في أيدي الناس من ملذّات، إلا أنه يصرّ على أن هذه الدنيا كلها "لعب ولهو"، وأنّ تحقيق بعض المكاسب المؤقّتة فيها ليس هو الغاية النهائية، بل يقول صراحة: إنّ الله غنيٌّ عنهم وليس بحاجة لهم، وإنه قادر على استبدالهم، فهم المحتاجون إليه في الدنيا، وإلى رحمته للخلاص في الآخرة.

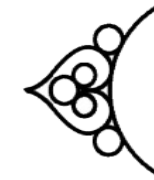
ولو أنّ المنافقين في عصرنا يتدبّرون القرآن، لأدركوا بوضوح أن النبي ﷺ لم يطلب الزعامة لنفسه بتحريض أصحابه على تقديسه وحمايته، مقابل تمكينهم واستيلائهم على ما في أيدي الناس، ولتيَقّنوا من أن هذه السيرة لا تتقاطع في شيء مع سِيَر زعماء الطوائف المهووسين بذواتهم المتضخّمة.

"أفلا يتدبّرون القرآن"؟

"أم على قلوب أقفالها"؟!



## الطور والنجم.. ما بين عقلانيّة الإيمان بعظمة الخالق وحماقة الشرك والإلحاد



سورة الطور، من السور المحبّبة إلى نفسي منذ حفظتُها في الطفولة، فهي -كمثيلاتها من السور المكيّة- ذاتُ آيات قصيرة، وإيقاع جميل، وقد جاء في الآثار أن النبيّ ﷺ كان يقرأ بها كثيرًا في صلاته. ففي الصحيحين، قال جبير بن مطعم: (سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فما سمعتُ أحدًا أحسن صوتًا أو قراءة منه)، وهنيئًا لمن سمع صوته.

تفتتح هذه السورة المكّيّة، التي نزلت على النبيّ وهو بين ظهراني قريش، بمقدّمة تبعث الوجل في النفوس: ﴿وَٱلطُّورِ وَكِتَٰبٍ مَّسۡطُورٍ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ﴾ [الطور: ١-٧]، وقد تطرح هذه الكلمات الموجزة تساؤلات عن سرّ القسَم الإلهي بهذه المخلوقات الخمسة.

القسَم يبدأ بجبل طور سيناء، الذي ناجى الله تعالى فيه موسى عليه السلام، وأنزل عليه فيه ألواح الشريعة، والتي كانت بداية نزول التوراة.

ثم أقسم الله تعالى بكتابٍ مسطور في رقّ منشور، والذي اختلف المفسرون فيه، فقيل هو اللوح المحفوظ، الذي كتب الله فيه كل شيء، أو التوراة أو القرآن الكريم، لأنّهما مدوّنان في الصُحف، وقيل المقصود هو سائر الكتب المنزلة على الأنبياء.

ثم أقسم جلّ وعلا بالبيت المعمور، وفي الآثار هو بيت تقصده الملائكة للعبادة في السماء، كما يقصد المسلمون الكعبة في الأرض.

ثم أقسم بالسَّقف المرفوع، أي السماء، ثم بالبحر المسجور، والذي قد يعني البحار والمحيطات الممتلئة بالماء، أو التي توقد بالنار في أهوال القيامة.

تخيّلتُ الآن مشركي قريش، وهم جُلوسٌ في ناديهم قرب البيت (الكعبة)، يستمعون إلى النبي ﷺ وهو يتلو هذا القسَم العجيب، وبتلك الفواصل الموسيقيّة التي تقرع القلوب. واستحضرتُ دهشة العربي الأمّي المولَع بالشِّعر وهو يكتشف عوالم جديدة لم تخطر له على بال، فمِن جبل الطور -الذي يغلب على ظني أنه لم تسمع به إلا القلّة ممّن تعلَّم القراءة وكُتب السابقين- إلى بيتٍ مماثل تعمُره الملائكة في أعلى السماوات، ثم عودةٌ إلى السماء الدنيا وبحارها.

وقبل أن تنجلي الدهشة، يقرع قلبَ المُشرك تحذير شديد اللهجة، وبفاصل موسيقي مغاير: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور: ٧-٨].

ولا تمهله الآيات للمسارعة إلى الجحود والسخرية، بل تضعه أمام مشهد يكاد يتجسّد أمام عينيه: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: ٩-١٠].

ولن يطمع المشرك بأن يعتدل في جلسته قبل أن تفجعه الآية التالية بالوعيد: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الطور: ١١]، وإذا همّ بالبحث في عيون ندمائه بالمجلس عمّا يردّ الطمأنينة إلى قلبه المفزوع، أو اجترأ على النطق بما اعتادوا عليه من الإنكار والتكذيب، سيسقط الردّ المُفحِم على رأسه كالصاعقة: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ [الطور: ١٢]، وربما تدعوه بقيّة الحياء ونوازع المروءة للصمت حفظًا لماء الوجه.

يكتمل الوعيد ليُسقِط في أيدي القوم، ويُخرِس ألسنتهم: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور١٣-١٤]، واستباقًا لأيّ صيحة تجترّ دعوى اتهام النبيّ بالسحر، سيضع السؤالُ التالي من يجرؤ على الدعوى في خانة الاتهام: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾؟ [الطور: ١٥]، وكأنّ العذاب قد وَقَع بالفعل، والمُشرك قابعٌ في جهنّم وهو يُسأل عمّا يراه، فإن لم يقتنع بأن هذا الوعيد قادم، فالردّ هو: ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦].

ينتهي الوعيد مع اكتمال المشهد، وتبدأ البشرى على الفور: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ [الطور: ١٧]، ثمّ تأتي الآيات بوصف بديع لهذا النعيم الموعود، لتضع المُشرك أمام خيارين واضحين.

إيقاع السورة لم يُمهلني أثناء التدبّر لأتساءل عما سيخطر على بال المشرك الجاحد عندما يسمع قسَمًا بأشياء عظيمة في عالم الغيب، أي الكتاب المسطور والبيت المعمور، فالتقريع يعاجله قبل أن يستنكر: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ [الطور: ١١-١٢]، وكأنّ السورة تُحرجه بالسؤال: هل أنت مكذّب؟ فإن قال نعم، قالت: أنت تلعب ولست باحثًا عن الحقيقة أصلًا!

السورة تضع الجدال في مكانه الصحيح، فهناك عالم غيبيٌّ نزل منه هذا الكلام المُعجِز، وهو يحدّث البشر عن بعض ما غاب عنهم في ذاك العالم، فإن كذّب الإنسان ما يسمع وهو قابعٌ في زاوية من زوايا الأرض، ثم عجِز عن الإتيان بكلام مثله، فهو ليس أهلًا لنقاش عقلانيّ.

## سورة النجم

أكملتُ القراءة مفتتحًا السورة التالية: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١]، وهو قسَم إلهيٌّ آخر بإحدى آياته التي تُرى بالعين المجردة، أي النجوم التي تغيب (تهوي) بطلوع الشمس. وقد ذكر بعض المفسّرين أنّ سبب نزول هذه السورة قولُ المشركين: إنّ محمَّدًا ﷺ يختلق القرآن. فقلتُ في نفسي: سأتعلّم الآن كيف تكون المحاججة.

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٢-٤]، الخطاب عقلانيٌّ وهادئ، وهو تقريريٌّ جازم أيضًا، ففيه تذكير لقريش بأن محمّدًا صاحبهم الذي عرفوه وألفوه، وهو الذي ظلّ أربعين سنة بين ظهرانيهم يختبرون صدقه قبل أن ينطق بالوحي، وقد أجمعوا على أنه "الصادق الأمين"، فهل يُعقل أن يضلّ ويغوي بعدما بلغ أشدّه؟!

ثم تكشف الآيات عن مصدرها الغيبيّ: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥]، أي مَلَك شديد القوة، وهو جبريل عليه السلام، ﴿ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النجم: ٦-٧]، أي ذو منظر حسن جميل، إذ استوى جبريل عاليًا في السماء، ليراه النبيّ ﷺ في ليلة المعراج على صورته المهيبة التي خلقه الله عليها[1]، وليس على صورة الآدميّين التي كان ينزل بها إلى الأرض.

---

(١) قال ابن مسعود رضي الله عنه في تفسير هذه الآية: "رأى جبريل له ستمئة جناح" [رواه البخاري ومسلم].

ثم تُواصل السورة وصف رحلة النبي ﷺ إلى السماء وبلوغه "سدرة المنتهى"، وهي شجرة عظيمة تأوي إليها الملائكة كالطّير، ورؤيته بعض آيات الله الكبرى رأي العين: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٦-١٨].

وهكذا بدا لي أنّ السورة امتداد للسورة السابقة، فكلتاهما تحدّثان المشركين المعاندين عن آيات غيبية تتجاوز حدود خيالهم، من البيت المعمور إلى سدرة المنتهى، وكلتاهما تشرَعان في وضع هذه الآيات بين يدي قسَم إلهيّ عظيم.

ووقع في نفسي أنّ الدجاجلة من أدعياء "النبوة" الذين تابعتُ خطاباتهم، من روّاد ما يسمى بحركة العصر الجديد[1]، لا يملكون معشار هذه الثقة الذاتيّة عندما يزعم أحدهم الاتّصال بمصدر غيبيٍّ، سواء كان كائنات فضائيّة ذكية مزعومة، أو ما يسمّى "المطلق" الذي تنبثق عنه الطاقة الروحية لتحلّ في الكون.

أمّا النبيّ ﷺ فكان يقف في وسط مكّة صادحًا بهذه الآيات، في قالب بياني مُعجِز، ليصف رحلته الشخصيّة الخارقة إلى عتبات أعلى نقطة في الوجود، غير عابئ بذهول خصومه المنغمسين في تفاصيل حياتهم الأرضيّة التافهة.

**جوهر النقاش**

وحتى أستوعبَ تسلسل خطاب التحدّي، أعدتُ قراءة السورة من أولها، فوجدتُها تبدأ بالتذكير بنزاهة وصدق محمّد ﷺ: ﴿ **مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ وَمَا يَنطِقُ**

(١) يطلق مصطلح "حركة العصر الجديد" New Age movement على طيف واسع من الطوائف والتيّارات الروحانية الغربيّة المتأثّرة بالفلسفات الشرقيّة، وتحديدًا الهندوسيّة والبوذيّة، والتي تشكّلت في النصف الثاني من القرن العشرين، وظهر تداخل بعض جماعاتها مع الجمعيّات السرية وطوائف عبادة الشيطان.

عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ٢-٣]، وهذا مدخل عقلانيّ، ثـم تبـدأ بتقرير جـازم لا نقـاش فيـه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣]، ثم تصف رؤيته لهيئة جبريـل العظيمـة في السـماء ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [الـنجم: ٥]، ثـم تقـرّر صـدقه فيمـا أخـبرهم بـه عـن الإسـراء والمعـراج بـلا نقـاش: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [الـنجم: ١١]، ثـم تقـرّع مـن يكذّبـه، وبـدون نقـاش أيضًـا: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ [الـنجم: ١٢]، ثـم تتـابع سـرد ارتقائـه في عـالم الملكـوت: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [الـنجم: ١٣-١٤]، وفي وسط هذا السرد تعيد إثبات رؤية النبي لكـل مـا ذُكِـر بحـزم لا يقبـل النقـاش: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧]، ثم تحدُث نقلة نوعيّة في الحـوار: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [الـنجم: ١٩-٢٢]، وهنا قُلِبت الطاولة على قريش.

لم تكن الآيات الأربعة الأخيرة مجرّد تقريع للمشركين في رأيي، بل هي جـوهر النقاش، فكلمة "أرأيتم" تعني ما رأيكم في كـذا؟ والمعنـى الحاصـل هـو: بعـد كـل مـا قيل عـن ثقتكم بصـدق محمّـد وأمانتـه، ثـم إخبـاره لكـم عمـا حـدث في ليلـة الإسـراء والمعراج، وعن عظمة ملكوت الله الذي تؤمنون به أصلًا، ما رأيكم في أصنام حجريّـة تحمل أسماء أسطوريّة، وهي اللّات والعزّى ومناة؟ وكيف تستبعد عقـولكم إمكانيّـة الإسراء برسول الله إلى بيت المقدس، ثم صعوده إلى السماء، ورؤيته للملائكة، بينما تصدّقون تمتّع أصنامكم -التي صنعتموها بأيديكم- بصفات الألوهيّة؟

بعبـارة أخـرى، إن كانـت الحجـارة تكتسـب صـفات خارقـة بمجـرّد اتخاذهـا أصنامًا مقدّسة من قِبَل البشر، فما الـذي يمنـع تمتّـع إنسـان مـا بإحـدى المعجـزات إن كان الله قد اختاره رسولًا له؟

كانت العرب قد اتّخذت مع الكعبة طواغيت، وهي بيوتٌ تعظِّمها كتعظيم الكعبة، لها سَدَنَة وحُجّاب، ويُهدى لها من القرابين كما يُهدى للكعبة، ويُطاف بها كما يُطاف بالكعبة، ويُنحَر عندها كما يُنحَر عند الكعبة[1]، وكان لكل قبيلة من القبائل الكبرى صنم ومعبد، وكانت قريش تعظّم أكثر من صنم، فإلى جانب هُبَل (كبير الآلهة المنصوب داخل الكعبة) كانت تعظّم أيضًا اللّات والعزّى ومناة، مع أن مراكز هذه الأصنام لم تكن في مكّة.

وكانت اللّات تقابل إلهة الخصوبة والأمومة والأرض عند الأقوام الأخرى، وكان معبدها لدى بني ثقيف، وانتشرت عبادتها في أرجاء الجزيرة حتى وصلت إلى بلاد الشام، فبنى لها أهل تدمر (في سورية حاليا) "معبد اللّات" الذي ما زالت آثاره قائمة حتى اليوم، وفيه منحوتة سليمة تجسِّدُ اللّات على هيئة امرأة، وهي تحمل بيدها سعفة نخيل، وبجانبها أسد رابض.

أما العزّى فتماثل إلهة الجمال والحبّ لدى الوثنيّات الأخرى، كما هي أفروديت في الميثولوجيا الإغريقيّة، وفينوس في الميثولوجيا الرومانيّة، وإيزيس في مصر القديمة، وعشتار (أو عشتروت) وإنانا في منطقتي ما بين الرافدين والشام، وكان يُرمز لكل هذه الآلهة بامرأة جميلة، وهي تمثّل كوكب الصباح (الزُهرة)، وقد عُبِدت العزى من قبل قريش وبني سليم وغطفان وجشم، ولها آثار في البتراء بالأردن.

وأما مناة فهي إلهة القدَر والمصير والموت، نُصِب تمثالُها على ساحل البحر بين مكّة والمدينة، وكانت معظَّمة عند قريش، وعند الأوس والخزرج في يثرب، وكل

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٠٩).

من كان مواليًا لهما. وكانوا يقصدون زيارتها ويقدّمون لها الأضاحي والهدايا الثمينة، طلبًا لنزول المطر ومنعًا للقحط والجدب.

هذه الآلهة الثلاث كانت تشكل ثالوثًا مقتبَسًا -كما يبدو- عن ميثولوجيّات أخرى، ويأتي هُبل على رأسها كما هو حال زيوس في اليونان، وجوبيتر عند الرومان، ومردوخ عند البابليين، وبعل عند الكنعانيّين والفينيقيّين في الشام.

ولا شكّ عندي في أن أصل كل هذه الوثنيّات واحد، وهو إبليس شخصيًّا[1]، فالأسطورة تتكرّر في كل مكان، مع تنويعات على بعض التفاصيل والمسمّيات.

وقد كان العرب يزعمون -مثل غيرهم- أن هذه الأصنام نُحِتت على هيئة الأجرام العلوية (الكواكب)، التي اكتسبت قداستها من علوّها في قبة السماء، وظنّوا أيضًا أن تلك الآلهة هي الملائكة نفسها، وأنها بنات الله جلّ شأنه، والحجارة التي نحتوها بأيديهم كانت -في زعمهم- نُصبًا تحلّ فيها تلك الأرواح، فاكتسبت بذلك القداسة التي تستحق التبرّك والتقديس وتقديم الأضاحي والهدايا النفيسة.

وكي تكتمل الأسطورة وتكتسب مصداقيّتها، كانت الشياطين تحلّ بنفسها في بعض الأصنام والمعابد، وكانت تتلبّس بالكهنة والسدنة لتجري على أيديهم وألسنتهم الخوارق، فيصدّقهم الناس. لذا، عندما أرسل النبي ﷺ خالدَ بن الوليد لهدم العزّى[2]، قال أصحاب السِّيَر: إنّ شيطانة على هيئة امرأة سوداء خرجت منها وهي تولول، فقطعها بالسيف.

---

(١) جاء في الحديث القدسي: "وإني خلقتُ عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرّمتْ عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرتُهم أن لا يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا" [رواه مسلم]

(٢) قال بعض المؤرخين إن العزّى كانت صنمًا داخل هيكل، وقال آخرون بل كانت بناءً على ثلاث سَمُرات (نخلات)، وكانت الهدايا الثمينة تُعلق على جدران المعبد وعلى أشجاره.

### عقليّات خرافيّة

بعد كل ما ذكرتُه لك -عزيزي القارئ- لنقرأ معًا الآيات السابقة مرة أخرى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩-٢٢]، ألا ترى كيف يُسقِط القرآن الكريم حجج مكذّبيه بتعرية جذورها المتهافتة فقط؟

الآيات تتساءل: لماذا نسبتم إلى الملائكة صفة الأنوثة، ثم نسبتم هذه الملائكة "المؤنّثة" إلى الله وزعمتم أنها بناته، وأنتم في الوقت نفسه تشعرون بالعار إذا وُلِدت لكم بنت أنثى، وتُفاخرون إذا وُلِد لكم ذكر؟

ثم يأتي الجواب: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣]، أي قد جاءكم تصحيح هذه المعلومات المغلوطة التي ورثتموها عن آبائكم، فما الذي يمنع الآن من اتباع الحقّ؟!

وبعد آيتين، يبيّن الله أن ملائكته ليسوا سوى خلق يطيعون أوامره، فهم ليسوا آلهة ولا أنصاف آلهة، وحتى شفاعتهم بين يديه لا تغني إلا بإذنه، فضلًا عن أن يتصرّفوا في ملكه أو يكون لهم أي شأن خارج سلطانه: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

ويستمرّ البيان والتقريع: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٧-٢٨]، فالأساطير ليست علمًا، بل هي ظنّ لا تدعمه إلا الروايات المتناقَلة عن

الأجداد، فتكتسب قداستها من الاعتياد والتكرار، وممّا تضفيه السلطة والكهنوت عليها من هيبة.

وإذا كان المشركون يسخَرون من قصة الإسراء والمعراج، لعدم موافقتها للمألوف والمعتاد، فأيّ علمٍ يدعم نسبة الأنوثة للملائكة؟ ثم نسبة الملائكة إلى الإله؟ ثم إقامة منظومة عقديّة وشعائريّة على حكايات "ظنّيّة" بحتة؟ ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٨]، و﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [النجم: ٣٠]، وياله من جهل!

قلت في نفسي، وذلك مبلغ المعاندين في كل عصر، فأساطير الوثنيّة المادّيّة سقطت في بداية "عصر التنوير" الأوروبي، لتُستبدَل بها أساطير العلمانيّة المادّيّة. وإذا كان القدماء يقدّسون الحجارة لاعتقادهم بحلول الأرواح فيها، وبأنها تماثل الأجرام العلويّة، ثم ينسجون من خيالهم (الظنّ) ما يوافق هواهم ويحقّق مصالحهم، فقد نزعَت الحداثةُ عن كل الأصنام والكواكب قداستها لإنكارها وجود عالم روحيٍّ غيبيٍّ، ثمّ نسجَتْ أيضًا من خيالها ما يملأ الفراغات العلميّة ويحقّق مصالحها.

وانظر عزيزي القارئ إلى منظومة الإلحاد التي قامت أساسًا على فلسفة "العلموية"، وكيف جعلتْ من العلم المادّيّ -الذي هو أداة لاقتباس النظريّات من الملاحظات والتجارب- مصدرًا وحيدًا للمعرفة والحقيقة، ونصبتْه صنمًا مقدّسًا تُقدّم في هياكله (المختبرات) شعائر العبادة.

وخذ نظريّة التطوّر مثالًا، فالتكيّف الوظيفيّ الذي رُصِدت آثاره بالملاحظة لدى الكائنات الحية عدّوه تطوّرًا، ثم ألصقوه عنوة بمبدأ زعموه ظنًّا هو "الانتقاء

الطبيعي"، ثم عمّموه على كل الكائنات ليفسّروا به نشوء الحياة وارتقاء الكائنات من الأدنى إلى الأعلى، ومن البكتيريا إلى الإنسان، بدون الحاجة إلى خالق حكيم، وسمّوا هذا الظّنّ علمًا، و"ذلك مبلغهم من العلم"!

وكما استبعَدَ المشركون قصّة الإسراء والمعراج وعظمة الملكوت، وهم قابعون في أساطير أشدّ غرابة، يستبعِدُ ملاحدة الحداثة كلَّ غيبيّات الوحي أيضًا، وهم قابعون في ظنّيات انبثاق الكون من العدم وتطوّر الكائنات بالانتقاء الطبيعيّ.

إذن فالمشكلة لدى هؤلاء وأولئك هي الآخرة ووعيدها، وليست في عالم الغيب، ولا في توافقه مع العقل، ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [النجم: ٢٩]، واكتفِ ببيان الحق بدون أن تهدر وقتك في جدل عقيم مع "من تولّى ولم يُرد إلا الحياة الدنيا".

**جهل وحماقة**

وإن شئتَ دليلًا آخر على تهافت عقله، فإليك المثال: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴾ [النجم: ٣٣-٣٤]، وهو الوليد بن المغيرة[1]، أحد صناديد قريش، إذ كان قد مالَ إلى تصديق رسول الله ﷺ ، فعيّره أحد أصدقائه وعاتبه، فقال له الوليد: إني خشيت عذاب الله، فما كان من صاحبه إلا أن عرض عليه أن يتحمّل عنه العذاب مقابل مبلغ من المال، بشرط أن يبقى على دين الآباء والأجداد، فاقتنع الأحمق بهذا العرض، ولم يكلّف عقله عناء التحقّق من إمكانية وفاء صاحبه بهذا العرض العجيب، وهل سيسمح له الله بذلك أصلًا، ثم بدأ الوليد بسداد جزء من

(١) هو الراجح عن المفسرين، وإنْ كانت هناك أقوال أخرى فالمعنى واحد.

المبلغ المتّفق عليه، وعندما عادت الغفلة إلى قلبه، وذهب عنه الخوف من عذاب الله، بخل على صاحبه ونقض العهد، ولم يسدّد بقية المبلغ!

فانظر كيف يقرّر الحمقى بأنفسهم آليّة الحساب الإلهيّ، ثم كيف يعرّض أحدهم نفسه لهذا العذاب مقابل تمتّعه ببعض المال في دنيا زائلة، وكيف يخاطر الآخر بقبول هذه الصفقة وهو لا يعلم إن كان الله سيقبل بها في الآخرة، ثم كيف يبخل عن تسديد ما اتُّفِقَ عليه معرّضًا نفسه مرة أخرى لتبعات فشل هذا الاتفاق العجيب. وكل ما تراه هنا ليس إلا اتّباعًا للظنّ، وهو أحقّ بأن يُسأل: ﴿أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٤]؟

وهذا الحمق ليس خاصًّا بمن مضى من عبدة الحجارة، فإنّك ترى اليوم ما هو أعجب منه لدى عبدة العِلم المادّي. ففي مثال مشهور، كتب الملياردير إيلون مَسْك تغريدة على موقع "تويتر" قال فيها: "إذا متّ في ظروف غامضة.. فقد كان من الرائع التعرّف عليكم"، وكان من بين الردود الكثيرة تعليقُ لاعب مسلم دعاه بأسلوب لطيف للإيمان "بوجود خالق عظيم لهذا العالم"، فما كان من مَسك، وهو معروف بعبقريّته وثقافته قبل أن يصبح أغنى رجل في العالم، إلا أن قدّم شكره للمعلّق المسلم، وأكّد أنه لا يمانع في الذهاب إلى جهنم، إذا كانت هي وجهته حقًّا يومًا ما، مسوّغًا ذلك بأن الغالبيّة العظمى من البشر سيكونون هناك.

قد يبدو رد مَسْك ساخرًا، إلا أنه يكشف بجلاء عن عدم إيمانه بخالق ابتداءً، ومن ثم فإنّ احتمال وجود عذاب لاحق لا يشغل باله، وهو مع ذلك لا ينصرف إلى التحقّق من هذا الاحتمال الرهيب طالما كانت غالبيّة البشر –حسب ظنه– ستشاركه

هذا المصير! و"إنّ الظن لا يغني من الحقّ شيئًا"، لكن هذا هو المتوقّع تمامًا ممّن "لم يُرد إلا الحياة الدنيا".

وقبل أن أختم هذه الرحلة، سألفت نظرك عزيزي القارئ إلى مقدمتها، وأذكّرك بالقسَم الإلهي: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١]، ولعلّك ستلاحظ بنفسك أنها مقدّمة مثاليّة للنقاش الذي هوى بأساطير المشركين، ممن نحتوا الأصنام وعبدوها زاعمين أنها تمثل الملائكة "المؤنّثة"، وأنها على هيئة النجوم والكواكب، فإذا كان الخالق قد أقسم بمخلوقه النجم إذا أفل كل صباح، فماذا أبقى جلّ وعلا للنجم من صفات تستحق العبادة؟

أما خاتمة السورة فلا تقلّ روعة عن مقدّمتها، ففيها وعيد ونذير بقرب الآخرة: ﴿أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ﴾ [النجم: ٥٧]، وبأن وقوعها حتميّ لا يمكن ردّه: ﴿لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم: ٥٨]، ثمّ تقريع واستنكار لعدم الاكتراث: ﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ﴾ [النجم: ٥٩-٦١].

وأخيرًا، إليك الأمر الإلهي بالثبات على طريق النجاة: ﴿فَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعۡبُدُواْ﴾ [النجم: ٦٢].

وهنا يخرّ كل من نجا من شرَك الشِّرْك والحماقة، ساجدًا ومسبّحًا: سبحان ربّي الأعلى.



## المجادلة والحشر والممتحنة.. التوحيد أوّلًا

لا يشتغل مسلمٌ بمجابهة الإلحاد في أيّامنا هذه إلا ويعلم ما يتركه فجور المعاندين من غصّة في قلبه، والتي قد تنقلب إلى قسوة وظلمة، فيضطرّ إلى المعالجة والمكابدة بالدعاء وقيام الليل وتدبّر القرآن حتى تنجلي.

وهذا هو ديدن الإنسان، فما هو إلا نفس معجونة بتراب الأرض، ثم نُفِخَت فيها الروح فدبّت فيها الحياة، وانطلق بعدها فرِحًا بمباهج الدنيا ليكتشف مرّة بعد أخرى مصداق قول خالقه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]. فهو في ابتلاء ما دام يتقلّب في أقدار دُنياه، ولن يبلغ السكينة إلا مؤقَّتًا بلجوئه إلى بارئه، ريثما تتحقّق أقصى أمانيه بدخوله دار السلام، حيث الخلود بلا شقاء.

تعثّرتُ يومًا بحساب على منصّة للتواصل لأحد أولئك الملاحدة، ممن نشؤوا في كنف عائلات متديّنة، ثم خُتم على قلوبهم بملء إرادتهم، فلم يكتفوا بالانقلاب إلى حزب الشيطان فحسب، بل ارتضوا لأنفسهم أن يصبحوا من أقذر جنوده.

كان الشاب قد لجأ إلى الغرب فانبهر به، حتى صار مهووسًا بما رآه من حضارة بُنيت على أنقاض شعوب أخرى ودمائها، ومتعجّبًا من انفضاض أهله عنه بعدما صار من جند الشيطان، وكأنّ كفره ومحاربته لأهمّ محددات هويّة الإنسان أيًا كان، لا سيّما إن كان مسلمًا، هو أمر تافه لا يستحق الالتفات!

أدركتُ أنه لا بد من العودة لبرنامج تخْلِية القلب مما علق به، قبل التحْلية، وتصادف تصفّحي للمصحف مع تذكري محاضرةً لأحد مشاهير الدعوة قبل

سنوات، حين سألنا في بدايتها عن "موضوع القرآن الكريم"، فتطايرت الأجوبة من الحاضرين، وهو يرفضها واحدة تلو أخرى، ثم أجاب: "هو الله تعالى"، وعلِقت تلك الإجابة في ذاكرتي متحدّية عوامل النسيان.

كان استحضار تلك الخاطرة ملائمًا للحال، فبعدما انشغل ذهني بهراء ذاك الجاحد، ألفيتُ قلبي يبحث متعطشًا عما يعيد إليه توازن العبوديّة، فشرعتُ في تقصّي ما يؤيد نظريّة صاحبنا الداعية، الذي أصرّ على أن كل ما ذكره القرآن من قصص وتشريع وأحكام ودلائل تدور حول محور واحد، هو إخلاص الإيمان والعبادة لله وحده.

كنت قد وصلت في قراءة ختمة للقرآن عند سورة المجادلة، فبدأتُ القراءة متدبِّرًا، والبداية مع قصّة الصحابية خولة بنت ثعلبة، التي ما زالت تراجع النبي ﷺ في أنّ زوجها قد ظاهرها -أي قال لها بلفظ شائع في أيام الجاهلية: أنت عليَّ كظهر أمي- ولم يطلّقها، حتى نزل جبريل بالحكم التشريعيّ الجديد للتمييز بين الظّهار والطلاق.

وروي عن عائشة رضي الله عنها قولها "تبارك الذي وسع سمعُه كل شيء، إنّي لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى عليّ بعضُه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.. فما برحتْ حتى نزل جبريل عليه السلام بهؤلاء الآيات"[1].

ولفت نظري هنا استهلالُ السورة بقوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]، فالحكم

(١) رواه الحاكم وصححه (٣٨٤٣).

التشريعي لم ينزل مجرَّدًا كنصّ قانونيٍّ جافٍّ، بل ابتدأ برابط عقائدي يشد الذهن نحو مصدريّة هذا الوحي، ويقدح فيه الانتباه إلى سعة علم الله وإحاطته ومراقبته لأدق تفاصيل حياتنا.

وخطر في ذهني لو أن مدّعيًا للنبوة أراد أن يقنعنا بأن لديه دستورًا تشريعيًّا متكاملًا، فهل كان سيخطر على باله أن يضع موادّه القانونية في هذه الصيغة القصصيّة، وأن يحرص على ذكر الرابط العقائدي من دون إخلال؟

وبعدما فرغتُ من قراءة هذه القصّة، وجدت نفسي أمام حكم تشريعيٍّ آخر، في انتقال سلِس من حكم الظّهار، الذي جاء بمناسبة النجوى (التهامس) في قصة خولة، إلى أحكام النجوى العامة، لكن الانتقال جاء عبر جسر عقائدي آخر، وهو التذكير بإحاطة علم الله تعالى بما نتهامس به فيما بيننا، فيقول جل وعلا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧]، وكأنّ هذا الكتاب المتكامل يوظّف نازلةً عابرة، كسؤال امرأة عن حكم العلاقة مع زوجها، لتنبيه المؤمنين إلى علم الله بكل شيء، ومحاسبته لهم على كل شيء.

وبعدها يأتي تقريع اليهود والمنافقين في نجواهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ [المجادلة: ٨]، ثم الحكم التشريعي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المجادلة: ٩].

وقبل اختتام السورة، فوجئتُ بتلك الآية العظيمة: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ

﴿فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩]، ومع أنها تصف حال أحد المنافقين الذي أخذ يحلف بين يدي رسول الله مع جماعة من أصحابه على أنهم لم يشتموه في مجالسهم، وهو ما كشفه الوحي فجاء بتكذيبهم، لكن الآية تكاد تنطبق على كل جاحد مستكبر في حاله مع الشيطان، وما أدقّ وصف الاستحواذ هنا، وما أحكمَه في بيان حال ذاك الشاب الذي نشأ على الإسلام ثم تغلغل في قلبه الكفر حتى صار من "حزب الشيطان"!

ولم تكد دهشتي تنقطع عن هذا التطابق، حتى جاءت الآية الخاتمة: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

لم أُنهِ قراءتها إلا والقشعريرة تسري في كياني، ثم تنزل بردًا وسلامًا على قلبي الذي جرحه فجور ذاك الملحد، إذ كان يشتكي من مقاطعة عائلته له، ما اضطرّه للبحث عن عائلة بديلة بين أمثاله في الغرب، فالقرآن يوضّح بجلاء أن المؤمن لا يستطيع الجمع بين إيمانه بالله واليوم الآخر حقّ الإيمان وبين المودّة لمن "حادّ الله ورسوله"، ولو كان من أقرب أقربائه.

بل تُواصل الآية زرعَ الطمأنينة بسلسلة من الوعود الجميلة، وآخرها إطلاق وصف الحماية والحرز: "أولئك حزب الله".

اللهم اجعلني وكل من يقرأ هذه الكلمات من حزبك وأهلك وخاصّتك.

## سورة الحشر

لم ينته التدبّر عند تلك المسحة الروحانية عزيزي القارئ، فما إن مضيتُ في قراءة سورة الحشر حتى وقع في قلبي استهلالُها بالتسبيح: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ١]، فمع أنّ السورة نزلت بمناسبة إجلاء يهود بني النضير عن المدينة المنورة إثر خيانتهم للمسلمين، إلا أنّ القصّة بأحكامها ووعيدها تبدأ بتذكيرنا بأنّ كل ما في الوجود يسبّح الله، وأنّه عزيز حكيم.

وبعدما تسرِد السورة شيئًا من أحكام الفيء[١] وتفاصيل الواقعة، تصفُ حال المنافقين في جُبنهم وخذلانهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [الحشر: ١١ و١٢]، وتذكرتُ مجدّدًا ذاك الملحد الذي يحسب أنّه وجد في أمثاله عائلته الحقيقيّة، وتأمّلتُ في حال كل مرتدّ من شبابنا عندما يجد التشجيع من أولئك الشياطين، فربّما ما كان بعضهم سيكفُر، أو يبقى على الكفر، لو لم يوفّروا له الحاجة للانتماء، وهم أول الناس انفضاضًا عنه إذا امتُحنوا في هذه الدنيا، فضلًا عن امتحان الآخرة.

تأمّل معي عزيزي القارئ في هذا المشهد: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦]، ثم تأمّل على مهل في الآية التالية: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الحشر: ١٧].

---

(١) الفيء هو ما أفاء الله تعالى على المسلمين من غير قتال، وله حكم خاص في التوزيع يختلف عن توزيع الغنيمة التي يغنمها الجيش بعد قتال.

لم أستطع تجنّب إسقاط هذا المشهد المفزع على ذاك الشاب المنتكِس، مع أنّه ما زال حيًّا يُرزَق، وأرجو أن تُكتب له الهداية والنجاة، لكن الخيال قد يشطح بغير عقال.

واستحضِر معي رهبة الوقوف أمام هذه الخاتمة الجليلة، وتذكّر معي نظريّة الداعية التي حدّثتك عنها، ونحن نقرأ بهدوء وخشوع: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢١- ٢٤].

وبما أنّ الكلمات لا تسعف في التعليق على جلال هذه الآيات، فسأكتفي بلفت انتباهك عزيزي القارئ إلى التطابق بين مقدّمة السورة وخاتمتها.

## سورة الممتحنة

مع أنّ تدبُّر السورتين السابقتين كان شافيًا وافيًا، لكنّ المضيّ في السورة التالية كان أكثر إثارةً لدهشتي، وكأنّ القرآن الكريم يتحيّن الفرص لمعالجة قلوبنا إذا لجأتْ إليه.

لم أكن منتبهًا في البداية إلى أنّ محور السورة يدور حول مفهوم الولاء والبراء، وهو العقدة التي أصابت ذاك الملحد في مقتل. فصدرُ سورة الممتحنة نزل لمعاتبة حاطب بن أبي بلتعة الذي كان من أهل بدر، إلا أنّه ارتكب خطأً فاحشًا عندما أرسل

رسالة إلى قريش ليحذِّرها من خطّة النبي ﷺ في فتح مكة، ومع أنّه برّر فعلته تلك أمام النبيّ بأنّه كان يريد حماية أهله في مكة، فقد نزلت السورة بعتاب شديد، ثم فصَّلتْ في شأن الحبّ والبغض في الله، لتقطع الاجتهاد بالرأي عن هذه المسألة الخطيرة.

ربما نتّفق على أنّ روابط الدم هي الأقوى في غريزة الإنسان، فهي التي تعقد عليها أجهزة المخابرات أملها في الثقة بولاء عملائها، أو حتى في محاربة أعدائها. إذ يمكن للإنسان أن يتساهل في الكثير من النوازع والرغبات، إلا أنّ حرصه على حماية أولاده وأفراد أسرته المقرّبين قد يكون أهمّ نقاط ضعفه التي لا يقدّم عندها التنازلات، وهو ما يمكن استغلاله في حروب المصالح المعقّدة.

مع ذلك، يأتي الأمر الإلهي بإعادة ترتيب الولاءات، ليكون الولاء لله أولًا، ثمّ تجريد القلب من التعلّق بالآباء والأمهات والأبناء عندما يختل الميزان الأول، من دون تقصير بالحد الأدنى من الواجب تجاه الأرحام، فتبدأ السورة بهذا الأمر الواضح: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١].

ثم تتابع: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الممتحنة: ٣]، ولا شكّ أنّك تذكّرت معي عزيزي القارئ حالة ذاك الشاب المرتدّ المستاء من تبرّؤ والديه منه، ومن تطليق القاضي زوجته منه وإقصاء ولده عنه، فعائلته المسلمة تعلم جيّدًا أنّ ابنها قد انقلب عدوًّا لها، بعدما صار عدوًّا لله ورسوله، وأي رَحِم يبقى بعد هذا؟!

لذا تذكِّرنا السورة بقصّة إبراهيم عليه السلام وقومه مع أهاليهم عندما قالوا لهم: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

واللّافت أنّ السورة لم تقطع الأمل عن قلوب المكلومين بكفر أقربائهم، بل تركت الباب مواربًا أمام احتمال إسلامهم وتوبتهم: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الممتحنة: ٧]. فالآية تواسي الصحابة باحتمال دخول أقاربهم المشركين في الإسلام وعودة المودّة بينهم، وقد كان ذلك بالفعل عندما أسلم معظم المشركين بعد الفتح.

إلا أنّ السورة تختتم بالتذكير مجدّدًا بما افتتحت به من تحريم موالاة الكفار، فتقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾ [الممتحنة: ١٣]، وكأنّه تحذير ختاميٌّ لمنع المسلمين من الركون إلى الأمل والتراخي في العمل، فموالاة الكافر محرَّمة ولو كان من أقرب الناس[١]، والأمل بإسلامه لاحقًا أمر آخر لا ينبني عليه حكم.

إذن فمدار الحياة كلها هو عبوديّتنا لله تعالى، وفهمُنا لهذه الحقيقة الجوهرية هو حقًّا محور هذا الكتاب المنزل إلينا منه جل وعلا.

وما أوضح هذه الحقيقة لمن يتدبّر بعقل يقظ، ونفسٍ سويّة، وقلب متجرّد عن العبودية للغير.

(١) هناك تمييز بين عدة أشكال للموالاة، فمنها ما هو كفر، ومنها ما يدخل في الكبائر، ومنها ما هو أقل من ذلك، ومن المصادر التي فصّلت في التمييز بينها كتاب "الولاء والبراء في الإسلام" للمؤلف محمد بن سعيد القحطاني.



# الإنسانيّة.. ما بين وهم التألّه وشرف العبوديّة

كثيرًا ما يلفت نظري استخدام مصطلح "الإنسانيّة"، سواء في الخطاب الثقافيّ الفكريّ، أو في خطابنا اليوميّ، وأقصد به المحكيّ والإعلامي وما نتداوله في مواقع التواصل الاجتماعيّ. ففي كل ما سبق، أصبحت الكلمة مرادفة لمعاني الإحسان، فمن يتمتَّع بمشاعر الشفقة والعطف والأخلاق النبيلة تُطلق عليه تلقائيًا صفة الإنسانيّة، وعندما اشتهر أحد الحكّام العرب -مثلًا- بمواقف كهذه أطلقت عليه الصحافة الحكومية لقب "ملك الإنسانيّة"، وهو لقب يحوز عليه أيضًا مشاهير آخرون.

هذا الإطلاق كان يبدو لي قبل بضع سنوات مثيرًا للسخرية، فمن العجيب أن يوصف الإنسان بأنه "إنسانيّ"، لأي سبب كان، فنحن لا نصف أي حيوان بأنه "حيوانيّ" مثلًا.

البحث في المعاجم قد لا يشفي الغليل، فالمصطلح لم يكن شائعًا لدى أجدادنا العرب، لذا نجده فقط في المعاجم الحديثة كالمعجم الوسيط (إصدار مجمع القاهرة) الذي يعرِّف الإنسانيّة بأنها خلاف البهيميَّة، أي أنها جملة الصفات التي تُميِّز الإنسان.

أما المعاجم الأجنبيّة فتشير أوّلًا إلى مصطلح (Humanism)، الذي يُترجم إلى "الإنسانويّة"، وهو تيّار فلسفيّ علمانيّ ابتدعه فلاسفة النهضة الأوروبية، ويُقصد

به إيلاءُ الإنسانِ الاهتمامَ الأكبر وجعلُه محورًا للوجود، في مقابل الأديان التي تضع الإنسان في مرتبة التبعيّة للإله.

أما أدبيّات الأمم المتحدة فتتعامل مع "الإنسانيّة" على أنها المبدأ المركزيّ الذي تقوم عليها كل المبادئ الأخرى، وتقصد به "حماية الصحّة والحياة وضمان حقوق الإنسان". ومع أنّ هذه المبادئ صيغت على أساس الفلسفة الإنسانويّة السالف ذكرها إلا أنّي لن أتوقّف عندها، فليس هذا محلّ تساؤلاتي.

المعنى المقصود إذن هو (Humanity)، وهو أيضًا مصطلح نشأ في الغرب ومن داخل ثقافته وليس عندنا، ويُقصد به الإحسان إلى جنس الإنسان. فبعدما أسَّست العلمانيةُ عقيدةَ محوريّةِ الإنسان في الوجود "الإنسانويّة"، أصبح الإحسانُ إلى بقيّة الناس هو محور الأخلاق.

لذا كان الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط (من القرن الثامن عشر) يقول إنّ الإنسانية هي هدف الأخلاق وأساس فكرة الواجب. فانتفاء ضرورة وجود الإله في فلسفته نسَفَ الفطرة الأخلاقية لديه، ولم يجد بدًّا من ربط الأخلاق بواجبٍ إنسانيٍّ لم يستطع هو نفسه أن يفسِّر نشأته من العدم، فجاء من بعده فريدريك نيتشه ليؤصّل للعدميّة وعبثية الوجود، كنتيجة حتمية للإلحاد!

الإنسانية إذن هي محبّةُ الإنسان، والإحسان إليه، هكذا تُعلّمنا الحضارة المادّيّة. ومع شيوع استخدام هذه الكلمة أصبحت صفةً تُطلق على كل إنسان يتحلّى بالنبل والأخلاق الحميدة، حتى يكاد يُفهَم منها أنّ الصفة الإنسانيّة -أي خلاف البهيميَّة- هي الجوهر الذي يتحلّى به الإنسان المجرَّد من حيث كونه إنسانًا، مع أنّها صفة مشتركة بين كلّ البشر، ولا ينبغي أن تكون مصدرًا لخيرٍ ولا لشرّ.

**البحث في الوحي**

لجأتُ أخيرًا إلى أداة البحث الإلكترونيّ في المصحف، وبحثت عن كلمة "الإنسان" في الكتاب الوحيد الذي أعلم يقينًا أنه ليس من تأليف الإنسان، فوجدتُ أن الكلمة وردت في القرآن الكريم ٦٣ مرة، وهي لا تأتي دائمًا في سياق الوصف، فقد تُذكر عند التطرّق إلى خلق الإنسان وتعليمه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦]، و﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥]، أو عند توجيه وصيّة عامّة: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨].

إذا تجاوزنا هذه الأمثلة، في طريقنا للبحث عن صفات الإنسان، في الكتاب الموجَّه إليه من خالقه، سنجد أنّ معظم تلك الآيات تقرن كلمة "الإنسان" بصفات النقص والضعف، وإليك بعضها: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧]، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠]، ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج: ١٩]، ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧]، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦]، ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ٤].

هذه الأوصاف لم تكن مفاجئة لي بالطبع، ولا أظنّ كذلك أنّها تفاجئك عزيزي القارئ، فلا بد أن بعض تلك الآيات عالقة في ذهن كل مسلم أيًّا كان مستوى علمه، لكن اللافت عند النظر إليها مجتمعة أنك لا تكاد ترى إلا صفات النّقص، وربما كانت الآية التالية استثناءً: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

لذا كنتُ أتساءل في سنّ مبكّرة: إذا كانت معظم صفات الإنسان في الكتاب المنزَل من خالقه تشير إلى النقص، فهل خُلق الإنسان معيبًا؟ وكيف يُحاسَب إذا كان خيرُه يغلبُ شرَّه؟!

قبل أن أبحث عن الإجابة في القرآن الكريم، سألفت نظرك عزيزي القارئ إلى أنّ تغليب الجانب الشرّير في الإنسان على الجانب الخيّر هو موقف الكنيسة الكاثوليكيّة، لأنّها تزعم أنّ الإنسان يرث ذنب آدم وحواء لأكلهما من الشجرة، بل جنَح بعضُ مفكّري الإسلام إلى هذا الرأي من خلال فهمهم للآية الكريمة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، لكن بعض المفسّرين تساءلوا كيف عرفت الملائكة أنّ الشرّ سيغلب على جنسٍ جديد لم يُخلق بعد؟ ورجّحوا أن الأرض كانت معمورةً قبل "الخليفة الجديد" بجنس آخر أفسد فيها وسفك الدماء، وغالبًا هو جنس الجنّ.

يقول المتنبّي:

الظُلمُ مِن شِيَمِ النُفوسِ فَإِن تَجِد ذا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لا يَظلِمُ

حسنًا، لنبحث مجدّدًا في القرآن الكريم، ولنتأمّل في بعض الآيات التي كرَّرت صفةَ الضعف الإنساني، فالإنسان يميل إلى التوبة عند الشدّة، ثم ينسى ويعود إلى الغفلة عندما تُكشَف عنه، وهذا أمر نألفه جميعًا في طباعنا، لكن الآية التالية تشير إلى أمر آخر مهم: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

[يونس: ١٠]، فمع أنّ الضعف أمر مفروغ منه، إلا أنّ الإصرار عليه حتى يصبح طبعًا يألفه الإنسان ويستحسنُه هو صفة أخرى "تُزيِّن" للمسرفين، أي لمن يبالغ في المعصية، وليس لمن يضعف وينسى.

الضعف والغفلة إذن من الصفات التي ابتُلي بها الإنسان في جِبلّته، لأن خلْقه قائم أصلًا على الامتحان، فإن تاب وعاد غفَرَ الله له على ما فيه من نقصٍ حتى ينجو، وإن استمرَأ الضعفَ سلَّطَ عليه الشياطين حتى يسقط.

وإذا عدنا إلى بعض التفاسير سنجد خلافًا محمودًا بين التعميم والتخصيص، ولْنذكر على ذلك مثالًا من الآية الكريمة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ﴾[الحج: ٦٦]، فبعض التفاسير المختصرة مرّتْ على كلمة الإنسان بدون تخصيص، بما يوحي بأنها تعمّ الجنس كله، مع أن تفسير الجلالين -وهو مختصر جدًّا- ذكر أن الكلمة خاصةٌ بالمشرك دونَ غيره.

أما القرطبيّ رحمه الله فبعدما قال: "إن الإنسان لكفور أي لجحود لما ظهر من الآيات الدالة على قدرته ووحدانيّته"، قال مباشرة: "قال ابن عبّاس: يريد الأسود بن عبد الأسد، وأبا جهل بن هشام، والعاص بن هشام، وجماعة من المشركين. وقيل: إنما قال ذلك لأن الغالب على الإنسان كفر النعم؛ كما قال تعالى: وقليل من عبادي الشكور"[1].

إذن فبعد التخصيص بالمشركين أوردَ التعميمَ على الجنس كلِّه، فحتى لو نزلت الآيةُ في حادثة معينة تتعلّق بأبي جهل وأقرانه فقد جاء الوصف عامًّا شاملا،

---

(١) تفسير القرطبي، ج ٦، ص ٧١.

ليوحي بأن كفر النِّعم طبعٌ وُجدت بذوره في نفس الإنسان أيضًا، وهذا من لوازم الامتحان.

وهذا الخطاب نجده في آيات أخرى عديدة، مثل قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم: ٦٦]، فقد ذكر بعض المفسرين أن الآية نزلت في أبيّ بن خلف، وقال آخرون في الوليد بن المغيرة، وهي موجهة لكل أمثالهم الكفار المنكرين للبعث. وكذلك الآية: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٧٧] التي قيل إنها نزلت في أبيّ أيضًا، الذي جاء إلى النبي ﷺ ومعه عظْم قد بلِيَ ففتَّتَه بيده، وقال: أترى يُحيي الله هذا بعدما رمّ؟ فقال النبي ﷺ: "نعم ويبعثك ويدخلك النار" فأنزل الله الآية[1].

إذن فهذه الآيات نزلَت للردّ على أحد المشركين في حادثة معينة، وهي آياتٌ شاملة في الردّ على كل كافر مثله. وقد يكون الكفرُ كفرَ نعمة كما في سورة الحج، فيمكن حينئذ تعميم الصفة على جنس "الإنسان"، وقد يكون كفرًا مُخرجًا من الملة كإنكار البعث الذي جاء في الآيتين الأخيرتين، فنقول إن المقصود بالإنسان هنا هو المشرك فقط.

**الخير أم الشر؟**

مع كل ما سبق، ربما ما زال السؤال معلَّقًا: هل الغالب فينا الخير أم الشرّ؟

فد تفاجأ عزيزي القارئ بأن العلم المادّي يميل إلى الجبْريّة، أي أنّ الإنسان مُسيّر لا مُخيّر، وبعبارة أخرى هو كائن غريزي يتصرّف بما يمليه عليه جهازه العصبيّ!

---

(١) أسباب النزول للواحدي، ص ١٩٠.

وعندما يتعلّق الأمر بعلم الاجتماع، ويُجري باحثٌ دراسته على مجتمع مادّي "متحضّر"، سيجد أنّ الإنسان يجنح إلى التوحّش عند غياب الرقابة والقانون، وسرعان ما تظهر أيضًا نوازع الشرّ والظلم عندما تتاحُ للإنسان المتحضّر فرصةُ السيطرة على أخيه الإنسان، كما في تجربة جامعة ستانفورد الشهيرة التي أجريت عام ١٩٧١، عندما قسّم الدكتور فيليب زيمباردو طلّابَه المتطوّعين إلى فريقين يؤدّيان دور الحراس والسجناء في بناء يحاكي السجن، فلم يتورّع الفريقُ الأول عن ممارسة دور القهر والتعذيب ضد زملائهم!

هذه النزعات تظهر أيضًا في مواقف كثيرة قد تمرّ بها عزيزي القارئ من غير أن تشعر، فلو سألتُك مثلًا عن موقفك من العنصرية ستسارع غالبا إلى التبرّؤ منها، وقد تستشهد بالأحاديث الشريفة التي تندّد بالحميّة الجاهلية، لكن غريزة الانتماء والتحيّز ونبذِ عرقٍ أو شعبٍ ما قد تظهر على السطح في مواقفك عندما تخضع مبادئك للامتحان العملي على حين غفلة، ولا يعني هذا بالضرورة اتخاذ مواقف عنصريّة عنيفة، بل على الأقل شعورٌ خفيّ بالتحيز.

الغرائز تعود في الأصل إلى حاجات البقاء، فالاستئثار والغيرة والتعصّب والانتماء ومعاداة الآخرين هي كلها من مستلزمات الحياة، وكذلك شهواتُ الجسد المعروفة، وهذه الغرائز مشتركة في معظمها مع الحيوانات، وهي ضدّ الأخلاق في كل الثقافات، فكلما نجح الإنسان في كبت غرائزه وضبطها وتوجيهها صار في العُرف العام أخلاقيًّا ونبيلًا، وقد يتطلّب الأمر أحيانًا التخلّي عن بعض تلك الغرائز والتحلّي بأضدادها ليكون أخلاقيًّا، كالإيثار والتضحية بديلًا عن الاستئثار والغيرة مثلًا.

إذن فوجودُ هذه الغرائز في النفس والجسد ليس عيبًا بذاته، وعندما يصف القرآن الكريم الإنسان بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩- ٢١] فهذا ليس إقرارًا من الخالق جل وعلا بأنه أوجد هذا المخلوق على هيئةٍ معيبة، بل هو بيان وتذكير للإنسان نفسه بالغرائز التي جُبل عليها، والتي ترتكز عليها متطلّباتُ حياته أصلًا، غير أنها تتطلّب أيضا جهدًا مستمرًّا في ضبطها وتهذيبها. لذا جاء الاستثناء في الآية التالية: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ٢٢]، ثم واصلت الآياتُ التالية وصفَ المصلين بصفات حسنة قوامها مجاهدة النفس، ما يعني ارتقاء الإنسان عندما يواظب على الصلاة من دركات الغرائز إلى مكارم الأخلاق.

ومع إقرارنا بوجود هذه الغرائز أيضًا، فنحن لا نسقط في هوّة "الجبرية" التي أفرزتها الفلسفة المادّيّة، ولا أقول العلم، ومن العجيب أن تجد كبارَ العلماء المادّيّين -مثل الفيزيائي المعروف ستيفن هوكنغ- يصرّون على أن الأعصاب هي التي تحكُم تصرُّفات الإنسان، نافين بذلك مبدأ حرية الإرادة، ثم يجعلون من الحرّيّة إلهًا يُعبَد وفقًا لقناعاتهم الليبراليّة، مع أن حرّيّة الاختيار أمرٌ بدهيٌّ يمارسه كل إنسان في كلّ لحظة من حياته.

يقول تعالى عن الإنسان: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، أي أنه بَيَّن للإنسان طريقَي الخير والشر، ويقول أيضا: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، وكأنّ الطريقين واضحان أمامه ليختار بنفسه، وهذا هو التكليف.

لكن سؤالًا قد يبقى ملحًّا: لماذا إذن تختار الغالبيّة طريقَ الشرّ والكفر والجحود؟ وهذا مؤكّد في القرآن نفسه، إذ يقول: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ

كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾ [الروم: ٤٢]، فهل فشلُ معظم الناس في الامتحان مؤشرٌ على غلبة النقص والضعف فينا؟

أعتقد أنّ الجواب أبسط بكثير مما يبدو، فإذا كنا قد انتهينا للتوّ من إثبات حرية الإرادة، وقدرة الإنسان على اختيار مصيره، فحتى لو أجمعت الإحصاءات في كل العصور على رُجْحان كفّة الأشرار والكفار فهذا ليس دليلًا على أصالة الشرّ والكفر، بل هو دليل على أمر واحد فقط، وهو أنّ غالبيّة الناس انقادوا لأهوائهم بإرادتهم فحسب.

دعني أضرب لك مثلًا آخر، فإذا كانت مناهج العلم الحديث تؤطّر مناقشاتنا، فلا يخفى أنّ الباحث يتقصّى الأرقام ليبني عليها، وإذا بلغ تكرارُ الملاحظات في استقراء الظاهرة حدًّا ما افترَض الباحثُ صحة نظريّته وعمَّم نتيجتها على البقيّة. مثلًا، إذا وجد أنّ غالبية السيارات التي ينتجها مصنع ما تحتوي على مشكلة في الفرامل، فسيستنتج أن هناك خللًا ما في التصنيع، وهذا أمر لا خلاف عليه لو طبّقناه على أجساد البشر أيضًا، غير أنّنا لا نتحدث هنا عن خلَلٍ في خِلقة غالبيّة الناس، بل لا يختلف اثنان على أن التشوّهات في الخلْق تحدث استثناءً وفي غاية الندرة، لكن الخلل الذي نتحدّث عنه يظهر في أفعال الناس، أي نتيجة لإرادتهم واختياراتهم.

إذن، مهما بلغ عددُ الضالين عن الصراط المستقيم في كل العصور، فهذا لا يعني أن ثمة خلل في عقولهم وكفاءتهم وصحة تكليفهم، لأنّ الأمر كله يتعلّق بإرادتهم واختيارهم وليس بخلْقتهم، وطالما ظلت هناك نسبة -ولو قليلة- من البشر ملتزمة بالحقّ في كل عصر، فهذا دليل إضافي على أنّ النجاح في الامتحان ممكن، وأنّ الفاشلين فيه اختاروا ذلك بمحض إرادتهم.

## "الإنسان" و"الناس"

هذا البحث قادني تلقائيًّا إلى سورة تحمل اسم "الإنسان"، فالاسمُ وحده كافٍ لرفع التوقّعات بالعثور على أجوبة شافية.

تبدأ السورة بإقرار قد يحسبه القارئ سؤالًا: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، قال الطبري: هذا خبر، كقول القائل لآخر يقرّره: هل أكرمتك؟ وقد أكرمه[1]. والآية تتحدّث عن آدم عليه السلام، فقد جاء في الآثار أنّ الله تعالى خلقه من طين وأبقاه على تلك الهيئة قبل نفخ الروح أربعين عامًا. ومعنى الآية: قد أتى على الإنسان -الذي هو آدم- حينٌ من الدهر لم يكن شيئًا له نباهة، ولا رفعة، ولا شرف، إنما كان طينًا لازبًا وحمأ مسنونًا.

إذن فهذه الحقيقةُ التي يكشفها الخالق، هي أول ما يستهلّ به الإنسان في التعرّف على نفسه: قد خُلق أبوه الأول من طين، وظل تمثالًا صلصاليًّا أجوف عشرات السنين، ثم اكتسب صفة الإنسانيّة بنفخة من خالقه.

ثم الحقيقة الثانية: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]، وهي تذكير بالأصل الثاني لكلٍ منّا، فكل هذا التعقيد ناشئ من اختلاط نطفة حقيرة ببويضة، لتصبح في نهاية أطوار النموّ إنسانًا سميعًا بصيرًا مؤهلًا للابتلاء.

---

(١) تفسير الطبري، ج ٢٩، ص ٢٥١.

ثم الآية التي ذكرتها لك سابقًا: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]. وفي إيجاز مُعجِزٍ، تأتي نتيجة الابتلاء في التمايز بين الفريقين: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: ٤-٥]، وما بعد ذلك من آيات مُخصّصٌ لصفات الأبرار ونعيمهم الموعود في الجنة.

أليس لافتًا أنّ سورةً تحمل اسم "الإنسان" تحمِلنا معظم آياتها إلى التحليق في الحلم بالجنة؟ فلا نجد فيها وصفًا للعذاب، ولا حتى ذكرًا لصفات الكفار، مع أنّها بدأت بالتمييز بين طريقَي الشكر والكفر بالتساوي.

السورة ركّزت إذن على صفات الإنسان الحميدة، مع أنّ اسم الإنسان كان يقترن في مواضع كثيرة من القرآن الكريم بصفات النقص، وكأنّ البحث في هذا الكتاب المعجز يقودنا إلى أنّ الإنسان ليس معيبًا.

وهذه ليست خاتمة البحث، فالقرآن كله يختتم بسورة اسمها "النّاس"، ليكون آخر ما تقرؤه عزيزي القارئ في مصحفك هو رسالة تُعيد لك التوازن في فهمك لذاتك.

في الليلة الأخيرة من رمضان، وفي آخر ختمة لي، لم أستطع تجاوز فتوحات الصفحة الأخيرة بدون أن تملأ قلبيَ الرّهبة، فأيّ شعور سينتابك عندما يردّد لسانُك لفظ الناس ثلاث مرات، مقترنًا في كل مرة بإحدى صفات العظمة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ مَلِكِ ٱلنَّاسِ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١-٣]؟

أرأيت كيف أضاف الله -جل شأنه- الناسَ إليه في ثلاث صفات: الربوبيّة والمُلك والألوهيّة؟ وكأن قَدْرنا لا يسمو إلا بإدراكنا لعبوديّتنا له.

أرأيت كيف انتقلنا في فهم أصل خِلقتنا من طين أتى عليه حينٌ من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا، إلى نطفة أمشاج، ثم إلى مخلوقات تسمع وتبصر وتختار بين السبيلين بحرّيّة كاملة، وصولًا إلى أعلى مقام ممكن: إدراك العبوديّة بين يدي الربّ والملِك والإله؟

أرأيت كيف خُتِم الكتاب أيضًا ببيان المعادلة ثلاثيّة الأطراف: الناس، الرّب جل وعلا، والذي يوسوس في صدور الناس من الجنّ والإنس معًا؟ فكمال العبودية يستلزم حذرَ الإنسان من عدوِّه: إبليس وجنده، واللجوءَ إلى الله للاستعانة به، وكأنّ خوض الإنسان هذه المعركة مجرَّدًا لا يضمن له الانتصار.

## أهم المراجع


- ابن تيمية، منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط ١، ١٩٨٦.
- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار الفكر، دمشق.
- أبو زيد المقرئ الإدريسي، القرآن والعقل، مؤسسة الإدريسي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠١٦.
- جلال الدين السيوطي، الدر المنثور في التأويل بالمأثور، مركز هجر للبحوث، ٢٠٠٣.
- جيفري لانغ، حتى الملائكة تسأل، ترجمة منذر العبسي، دار الفكر، دمشق، ط١، ٢٠٠١.
- الحسين بن مسعود البغوي، تفسير البغوي، دار طيبة.
- الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣، ١٩٨٧.
- عبد السلام المجيدي، الإسلام في سبع آيات، دار الحديث الكتانية، طنجة، ط١، ٢٠١٨.
- علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، أسباب النزول، تحقيق عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح، الدمام، ١٩٩٢.

- فخر الدين الرازي، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤.
- القاضي أبو السعود، تفسير أبي السعود، تحقيق خالد محفوظ، دار الكتب العلمية، بيروت.
- محمد أبو زهرة، ابن تيمية: حياته وعصره- آراؤه الفقهية، دار الفكر العربي.
- محمد بن أحمد القرطبي، تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، دار الكتب العلمية، بيروت.

## هل عرفت البشريّة في عصرها الحديث كتابًا قديمًا يتحدّى تقلّبات الزمن ليبقى حاضرًا بنصه وبلاغته ورسائله كالقرآن؟

لا شكّ في أنّ كل أتباع الديانات الأخرى يقدّسون نصوصهم القديمة، وهي أقدم منه، وما زالوا يترنّمون بها في معابدهم، ولكن هل يتجاوز الأمر حدَّ إقامة الشعائر؟

القرآن وحده ما زال حيًّا، ليس بتلاوته تعبّدًا فحسب، ولا احتفاءً بحضوره في المراسم، بل هو النصّ الوحيد الذي لم يخفت حضوره في المدارسات الأكاديميّة الرفيعة على مرّ القرون، كحضوره أيضًا في المناهج الدراسيّة والشواهد اللغويّة والتأمّلات الفكريّة الخاصة لكل فرد يبتغي البحث عن خلاصه فيه.

أليس هذا التفرّد مُلفِتًا؟ وهل يرقى أيّ نصٍّ مقدّس آخر إلى مثل هذا الحضور الجريء في الأوساط الأكاديميّة من دون أن يتعرّض لمشارط النقد والجرح، علميًّا وتاريخيًّا وفكريًّا. فالنوازل وحدها كافية لنقض قداسة (الكتاب المقدّس) لدى اليهود والنصارى اليوم، وما فيه من تناقضات ما زالت محل اجتهادات التبرير والتأويل.

